اللغة العربية بأسيوط
المجـــلة العلميـــة

مباحث الإعجاز البياني عند القاضي عياض في كتابه الشفا
دراسة ومقارنة

د. محمد سيد سلطان
المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية

(العدد التاسع والعشرون – الجزء الثانى أكتوبر ٢٠١٠)

توطئة

" الإعجاز مفهومه ودلالته "

عَجُز الإنسان مؤخَّره ، وبه شبه مؤخَّر غيره قال تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[1] والعجز : أصله التأخر عن الشئ وحصوله عند عجز الأمر أى مؤخره ، وصار فى المتعارف اسما للقصور عن فعل الشئ ، وهو ضد القدرة ، قال تعالى فى قصة ابنى آدم عن أحدهما: ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾[2].

وأعجزت فلانا ، وعجَّزْته ، وعاجَزْته ، جعلته عاجزاً . قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾[3]. والعجوز إنما سميت عجوزاً لعجزها فى كثير من الأمور[4].

وعند ابن فارس أن هذه المادة تدل على معنيين هما : الضعف ، ومؤخر الشئ . وأولى المعنيين بالقبول ما دل على مؤخر الشئ ، لأن أصل العجُز مؤخر الإنسان واستعير لغيره[5].

وهناك صلة وثيقة بين هذا المعنى وبين القصور عن الشئ ، لأن التأخر والقصور متلازمان ، وذلك لأن من تأخر عن غيره يكون ذلك قصوراً منه، وبذلك يكون رأى ابن فارس مرجوحاً ، لأن العين والجيم والزاى تدل على أصل واحد وهو مؤخر الشئ ، والتقصير ناتج عنه .

والإعجاز : مصدر أعجز الرباعى ، ومعناه إثبات العجْز ، والعجْز هو القصور عن فعل الشئ ، وضده القدرة ، يقال : عَجَز فلانٌ عن الأمر ، إذا حاوله فلم يستطعه ، ولم تتسع له مقدرته وجهده .

وإذا ثبت الإعجاز ، ظهرت قدرة المُعْجز ووضحت المعجزة .

---

(1) سورة القمر الآية ٢٠ .

(2) سورة المائدة الآية ٣١ .

(3) سورة التوبة الآية ٢ .

(4) المفردات للراغب الأصفهانى /٥٤٧، ٥٤٨ .

(5) الصاحبى لابن فارس ت: صفوان عدنان داوودى ط أولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

ويطلق الإعجاز ويراد به لازمه ، وهو إعجاز الإنس والجن معاً ، لأن التعجيز ليس لذاته ، بل المقصود لازمه ، وهو إظهار أن القرآن حق من عند الله ، وأن الرسول الذى جاء به رسول صادق ، وكذلك الشأن فى كل معجزات الأنبياء – عليهم السلام – ليس القصد منها تعجيز الخلق لذات التعجيز بل الدلالة على صدق الأنبياء والرسل فى بلاغهم عن الله تعالى .

وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله ، أى أعجز القرآن الناس أن يأتوا بمثله ، وهذا يعم الجن كذلك ؛ لأنهم داخلون فى التحدى .

فالمعجزة إذن ، خرق لنواميس الكون ، أو لقوانين البشر ، يعطيها الله– سبحانه وتعالى – لرسله ليدل على منهجه ، ويثبتهم به ويؤكد للناس أنهم رسله تؤيدهم السماء وتنصرهم ، والسماء حين تؤيد وتنصر ، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً [٦].

يقول الجرجانى فى تعريفاته : " المعجزة أمر خارق للعادة ، داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله " [٧] .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته : " إن المعجزات هى أفعال يعجز البشر عن مثلها ، فسميت بذلك معجزة ، وليست فى مقدور العباد ، وإنما تقع فى غير محل قدرتهم " [٨] .

ومعجزات الله تعالى تتميز عن أية معجزات أخرى تمييزاً واضحاً قادراً فهى أولاً: تأتى وتتحدى من أرسل فيهم " الرسول " فيما نبغوا فيه لماذا ؟ لأن التحدى فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحدياً .

ومن ثم وجدنا أن المعجزات التى أيد الله بها سائر أنبيائه ورسله – عليهم الصلاة والسلام – تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وطبيعة الأقوام ، وظروف حياتهم وعصورهم – إلا أن هذه المعجزات تندرج تحت قسمين :

معجزات حسية ، ومعجزات عقلية .

---

(٦) مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى ص٢٩ د/ أحمد جمال العمرى ط دار المعارف .

(٧) التعريفات للجرجانى ص٢٧٣ .

(٨) المقدمة لابن خلدون .

* **فأما المعجزات الحسية** : فقد قصد بها العليم الخبير أن تجابه الحواس ، وتتحدى قدرات البشر ، وأكثر المعجزات التي سبقت معجزة رسول الله ﷺ كانت من هذا النوع الحسي المادي ..

* **أما المعجزات العقلية** : فهي التي تواجه العقل ، وتلقاه بكل ما فيه من قوى الإدراك . وهذا النوع لا يقع من الناس موقعاً متقارباً – كما هو الشأن في المعجزات الحسية – وإنما يلقاه كل إنسان بما لديه من إدراك وفهم ، وقدرة على التمييز بين المدركات ، والتفرقة بين الخير والشر .

ومن هنا نستخلص أمرين :

الأمر الأول : أن المعجزة يجب أن تكون خرقاً لقوانين البشر ولا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى الذي وضع هذه القوانين .

والأمر الثاني : أن معجزة كل نبي يجب أن تكون مما ينبغ فيه قومه ، حتى يكون التحدي نابغاً وقوياً ، وبرهانا على قدرة القادر جل وعلا [٩].

([٩]) ينظر: مفهوم الإعجاز القرآني ص٢٩ ، ٣٠.

مدخـــــل

قبل أن نلج فى بيان وجوه الإعجاز البيانى عند القاضى عياض نبين رأيه فى القول بالصرفة فنقول – وبالله التوفيق :

بعد أن عرض القاضى للوجه الذى ذهب إليه أكثر أئمة أهل السنة فى إعجـــاز القـــرآن الكريم وهو الإعجاز بالبلاغة والأسلوب ذكر من ذهب منهم إلى القول بالصرفة – يعنى صرف الهمم عن المعارضة – وإن كانت مقدوراً عليها غير معجوز عنها إلا أن العائق من حيث كـــان أمراً خارجاً عن مجال العادات صار كسائر المعجزات أ هـــ قائله الخطابى [١٠].

قال القاضى : " وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحـــت مقـــدور البشر ويقدرهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا وعجزهم عنه . وقال به جماعة من أصحابه .

يشير القاضى بذلك إلى رأى ذكره الإمام أبو الحســـن الأشـــعرى فى كتابـــه " مقـــالات الإسلاميين " [١١] .

وهذا يدل على أن مذهب الصرفة لم يكن خاصاً بالمعتزلة ، لأنهم القائلون به والمؤسسون له ، وإنما قال به جماعة من أئمة أهل السنة كما نص على ذلك الشهرستانى حيث يقول بعد عرضه رأى أبى الحسن فى الإعجاز: " ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صـــرف الدواعى وهو المنع من المعارضة ، ومن جهة الإخبار بالغيب " [١٢] .

وقد ذكر العلامة الإيجى فى المواقف أن القاضى أبا اسحاق الإسفراييني – وهو من أئمـــة الأشاعرة – قد قال بهذا أيضا [١٣].

---

(١٠) البيان : ١٨ .

(١١) مقالات الإسلاميين ١/٢٧١ ت : الشيخ محى الدين عبد الحميد بلا تاريخ .

(١٢) الملل والنحل ١٦٩ ط الأزهر .

(١٣) المواقف ١/٢٤٥: ٢٤٦ شرح السيد الشريف ط السعادة ١٣٢٥هـــ ١٩٠٧م . أولى .

ومن عرض مذهب الصرفة كما عرضه النظام الإمام الخطابي – وهو أجل علماء أهل السنة علماً وفقهاً وغزارة وورعا – ولكنه عقب عليه بقوله : " وهذا أيضاً وجه قريب إلا أن الآية تشهد بخلافه ، وهي قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١٤) .

فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد ، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم (١٥).

وهذه روح علمية ناضحة من الإمام الخطابي حيث رد الصرفة رداً لا يقبل الجدل ، لأن الله تعالى لو كان قد سلبهم القوى لما ذكر تساندهم وتعاونهم وتظاهرهم ، لأن المفرغين من الطاقة المؤثرة لا يكون لاجتماعهم أثر ، وألف أعمى لا يهدون أعمى ، وألف ميت لا يعينون ميتاً ، وهذا الوجه لقوته تناقله أهل العلم وشاع في الكتب ، ولم يوجد من دفع الصرفة بهذا الوجه قبل الخطابي (١٦).

أدلة إبطال القول بالصرفة

ولعل أفسد ما قيل في الإعجاز أو من أفسده عد ذلك من وجوه الإعجاز وبيان فساده وبطلانه من عدة وجوه :

أحدها: ما أشار إليه الخطابي أنفاً .

ثانيها : أن آية " الإسراء " المذكورة تدل أيضاً على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة – وهو معنى الصرفة – لم يبق لاجتماعهم فائدة لأنه حينئذٍ بمنزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل به وينوه عنه.

---

(١٤) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

(١٥) البيان / ١٩، ٢٠ .

(١٦) يراجع الإعجاز البلاغي أ. د / محمد أبو موسى ص٣٦٦ ط مطابع مختار الإسلامي ط أولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م

ثالثها: انعقاد الإجماع – قبل النظام – على إضافة الإعجاز إلى القرآن نفسه ، والقول بالصرفة يلزمه إضافته إلى الله تعالى – لا إلى القرآن – وحينئذٍ يكون المعجز الله تعالى ، حيث سلبهم القدرة [١٧].

قال القاضي ابو بكر الباقلاني : " ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة – وإنما منع منها الصرفة – لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون بالمنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه.ا.هـ [١٨].

رابعها : يلزم ن القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى .

وبيان ذلك أن القرآن خالٍ من الإعجاز وإنما أعجز الله العرب الذين قالوا : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [١٩] فسلبهم القدرة ، وحيث ذهبوا وانقرض زمانهم زال التحدى ، وبقى كحاله خالياً من الإعجاز !!! وفيه خرق لإجماع الأمة ، إذ معجزة الرسول ﷺ العظمى باقية ، ولا معجزة باقية أظهر منالقرآن .

خامسها :

يلزم من القول بالصرفة أيضاً أنه لا فضيلة للقرآن على غيره [٢٠] وزاد بعض القائلين بالصرفة فساداً حيث زعم أن العجز وقع من العرب الذين وجه إليهم التحدى ، وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله، وهذا – مع خرقه لإجماع المسلمين – كفر صُراح ، وسخف لا خفاء به ، وهذيان من القول ينبغى أن تتره كتب العلم عن حكايته وترديده [٢١].

([١٧]) ينظر: شرح الخفاجي على الشفا ٥٠٦/٢.

([١٨]) إعجاز القرآن/ ٢٦ .

([١٩]) سورة الأنفال الآية ٣١ .

([٢٠]) ينظر: شرح الخفاجي ٥٠٦/٢ ، وهامش رسالة البيان للعلامة الحافظ عبد الله بن محمد الصديق الغمارى ص١٩

([٢١]) هامش رسالة البيان للخطابي ص١٩ تعليق الشيخ عبد الله الغمارى – رحمه الله تعالى –.

ثبوت عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن مع التحدى

ثم يشير القاضى – رحمه الله وأثابه – إلى ثبوت عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن مع كمال بلاغتهم وفرط تهالكهم ونفخ عنادهم لإطفاء نوره وما زاده إلا اشتعالاً وإضاءة . وأنه قد أقام الحجة عليهم بتكليفهم بأقل قليل منه بما يمكن أن يكون فى مقدور البشر وقد تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وأسلوبه ونظمه .

وهذا أبلغ فى التعجيز بغيره ، مما لا يقدرون عليه كإحياء الموتى وكذلك الاستدلال على عجزهم بمجئ بشر مثلهم بشئ ليس من قدرة البشر لازم ، أى على القول الأول من أنه معجز بمادته وصورته وهذه أعظم آية وأغلبها لسائر الآيات الباهرة ، لارتفاع شأن القرآن وعلو مرتبته، وأنه لا يدنو منه كلام بليغ فى مرتبته[٢٢].

قال القاضى : " وعلى الطريقين ، فعجز العرب عنه ثابت ، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون فى مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله ، قاطع وهو أبلغ فى التعجيز وأحرى بالتقريع ، والاحتجاج بمجئ بشر مثلهم بشئ ليس من قدرة البشر لازم ، وهو أبهر آية وأقمع دلالة " .

ثم يقول القاضى : " وعلى كل حال فما أتوا فى ذلك بمقال ، بل صبروا على الجلاء والقتل ، وتجرعوا كاسات الصغار والذل وكانوا من شموخ الأنف وإباءة الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختياراً ، ولا يرضونه إلا اضطراراً ، وإلا فالمعارضة – لو كانت من قدرهم – والشغل بها أهون عليهم ، وأسرع بالنجح وقطع العذر ، وإفحام الخصم لديهم ، وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدوة فى المعرفة به لجميع الأنام " .

ثم يشير القاضى إلى أن العرب اجتهدوا فى استفراغ ما عندهم من قدرة لإطفاء نور القرآن ولكنهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً كما قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [٢٣] .

يقول : " وما منهم إلا من جهد جهده واستنفذ ما عنده فى إخفاء ظهوره ، وإطفاء نوره، فما جلوا فى ذلك خبيئة من بنات شفاههم ولا أتوا بنقطة من معين مياههم، مع طول الأمد

---

(٢٢) ينظر: شرح الخفاجى على الشفا ٢/٥٠٤ .

(٢٣) سورة التوبة الآية ٣٢ .

،وكثرة العدد ، وتظاهر الوالد وما ولد ،بل أبلسوا فما نبسوا ومُنعوا فانقطعوا، فهذان النوعان من إعجازه ".

وهذا هو ما قرره الجاحظ من قبل في رسالته " حجج النبوة " إذ يقول في " فصل كراهته وامتناعهم عن معارضته لعجزهم عنها ... " فحين استحكمت لغتهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم ، وفاق الناس خطباؤهم بعثه الله – عز وجل – فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، وينتقصهم على نقصهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ، مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات " [٢٤] .

كما أشار إلى ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في " جملة وجوه إعجاز القرآن " فيقول : " ولولا هذه الوجوه التي بيناها لم يتحير فيه أهل الفصاحة ، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة ، والتصنع للمعارضة ، وكانوا ينظرون في أمرهم ، ويراجعون أنفسهم ، أو كان يراجع بعضهم بعضاً في معارضته ، ويتوقفون لها .

فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة ، وإنما عدلوا عن هذه الأمور لعلمهم بعجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم دونه .

ولا يمتنع أن يلتبس على من لم يكن بارعاً فيهم ولا متقدماً في الفصاحة منهم هذه الحال ، حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل ، وحتى يعرف حال عجز غيره .

إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا ولم يشتغلوا بذلك تحققاً بظهور العجز وتبينا له .

وأما قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾[٢٥] فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم ، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم وهو يدل على عجزهم .

([٢٤]) مداخل إعجاز القرآن أ/ محمود محمد شاكر ص٢٦ نشر مطبعة المدني ط أولى ٢٠٠٢م ١٤٢٤هـ .

([٢٥]) سورة الأنفال الآية ٣١ .

ولذلك أورد الله مورد تقريعهم ؛ لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز ، والضمان إلى الوفاء .

فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدى، وتطاول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم. إذ لو كانوا قادرين على ذلك ، لم يقتصروا على الدعوى فقط

ومعلوم من حالهم وحميتهم أن الواحد منهم يقول في الحشرات ، والهوام ، والحيات وفي وصف الأزمة والاتساع ـــ والأمور التي لا يؤبه لها، ولا يحتاج إليها ، ويتنافسون في ذلك أشد التنافس ويتبججون به أشد التبجج ، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته في هذه المعاني الفسيحة ، والعبارات الفصيحة ، مع تضمن المعارضة تكذيبه والذب عن أديانهم القديمة ، وإخراجهم أنفسهم من تسفيه رأيهم ، وتضليله إياهم ، والتخلص من منازعته ، ثم من محاربته ومقارعته ، ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك ، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل ويعللونها بالأباطيل " [٢٦].

شبهة وجوابها :

أورد الشهاب الخفاجي شبهة تتصل بما نحن فيه من إثبات عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن مع أنهم يملكون ناصية البيان فقال : " فإن قلت : القول بعجزهم مع بقاء قدرهم فيه الجمع بين النقيضين وهو محال .

قلت : سنى قدرتهم أن هممهم توجهت إلى المحاكاة لظنها القدرة عليها فعجزت.

وعلى القول بالصرفة لم يتوجهوا لمعارضته أصلاً ، لقطعهم من نفوسهم بعجزها وأنه لا قدرة لها عليه البتة .

فإن قلت:توجه الهمم إليهامع العجز عنها في نفس الأمر لا يسمى قدرة.

قلت : ممنوع ، بل تسمى قدرة باعتبار العرف ، وقطع النظر عن الغايات ، ولا شك في أن أهل البلاغة لا يقطعون سبب القدرة على المحاكاة ابتداءً ، بل بعد الاختبار فتأمله ، لتعلم سقوط ما قيل : كيف يخاطبون بالتحدى مع القطع بعجزهم عنه ونظير ذلك : خطاب الله تعالى من علم منه عدم الإيمان بالإيمان كأبي جهل وأبي لهب ، نظراً لقدرتهما عليه باعتبار الظاهر وإعراضاً عن

([٢٦]) إعجاز القرآن للباقلاني / ٣٥، ٣٦ .

النظر للغايات " [٢٧] من أجل ذلك قال القاضى عياض : " فهذان نوعان من إعجازه " إشارة إلى إعجازه بنفس كلامه وخواص تراكيبه وبصورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ولم يلتفت للقول بالصرفة ؛ لضعف القول بها عنده .كما يقول الشهاب الخفاجى –رحمه الله تعالى وأثابه – .

دفاع عن القاضى :

مما سبق يتبين لنا خطأ بعض الدارسين المعاصرين[٢٨] ممن كتبوا فى قضية الإعجاز القرآنى حيث ذهب إلى أن القاضى ممن يقول بالصرفة وهذا نص كلامه " ومعروف أن القاضى عياض كان سلفيا يهتدى بآراء أهل السنة ، ومع ذلك قد ضلله عنصر النقل والاقتباس فوقع فى المحظور حين لم يفهم ما ذكره المعتزلة من القول " بالصرفة " فنراه يذكر ما ذهب إليه أبو الحسن الرمانى المعتزلى من أن القرآن " مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم عليه ، ولكنه لم يكن هذا فمنعهم الله هذا وعجّزهم عنه " – ثم يقول : وهو لا يدرى أن هذا الرأى أنكره أهل السنة وحاربوه وسفهوا آراء القائلين به [٢٩] .

وهذا النص يحتوى على خطأين مع ما فيه من الجرأة على مقام العلماء المحققين من سلفنا الصالح – رضى الله تعالى عنهم وأثابهم –:

أما الخطأ الأول : فتفسير قول القاضى " وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ... الخ كلامه " " بأنه أبو الحسن الرمانى"مع أنه أراد به أبا الحسن الأشعرى كما فسره شراح الشفا كالشيخ ملا على القارى والشهاب الخفاجى [٣٠]، وهذا هو الصواب لأن كلام الشيخ أبى الحسن الأشعرى موجود فى كتابه مقالات الإسلاميين[٣١].

([٢٧]) شرح الشفا للخفاجى ٢/٥٠٦، ٥٠٧ .

([٢٨]) هو الدكتور / أحمد جمال العمرى .

([٢٩]) مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى د/ أحمد جمال العمرى ص ٢٠٩، ٢١٠ .ط دار المعارف بلا تاريخ .

([٣٠]) راجع شرح ملا على القارى والخفاجى على الشفا ٢/٥٠٣، ٥٠٤ .

([٣١]) راجع مقالات الإسلاميين ١/٢٧١ ت : الشيخ / محى الدين عبد الحميد بلا تاريخ ..

الخطأ الثاني : أنه عد القاضي عياض ممن ذهب إلى القول بالصرفة مع أنه ليس ممن يقول به وإنما ذكره كما ذكره غيره من العلماء السابقين عليه كالخطابي مثلا حيث قال بعد أن حكاه " وهذا أيضاً وجه قريب إلا أن الآية تشهد بخلافه " [٣٢] يشير إلى آية الإسراء رقم " ٨٨ " ولا يلزم من ذكره أنه ذهب إليه وقال به ، بل إن كلام القاضي في نهاية الحديث عن الوجه الثاني يشهد بأنه إعرض عنه لضعفه كما يقول الخفاجي .

أما الجرأة على مقام السلف الصالح فتتمثل في وصف هذا الباحث بأن القاضي عياض " ضلله عنصر النقل والاقتباس " " وأنه وقع في المحظور حين لم يفهم ما ذكره المعتزلة من القول بالصرفة ".

ووصفه بقوله " وهو لا يدرى أن هذا الرأى أنكره أهل السنة وحاربوه وسفهوا آراء القائلين به " .

فهل القاضي عياض – رحمه الله تعالى وأثابه – قد ضل في هذه القضية حيث نقل ما لا علم له به فوقع في المحظور ولم يفهم ما قاله المعتزلة وغيرهم ممن ذهب مذهبهم ، وأنه لا يدرى أن هذا الرأى قد أنكره العلماء من أهل السنة ورووه بوجوه كثيرة وسفهوا رأى من يقول به ؟ .

الجواب : أن هذه استهانة وقلة مبالاة ممن يهرف بما لا يعرف ويترك لسانه يطول ويرعى في مرتع وخيم ويتناول السلف الصالح ويستهين بعقول هؤلاء الأئمة العظام الذين خدموا العلم بإخلاص وورع جيلاً بعد جيل .

وهذه الاستهانة تعوّد طلبة العلم أن يستهينوا ويستخفوا بالعلم نفسه، وهذا هو البلاء الماحق لكل فضيلة في طالب العلم ، ويخرجه من حيّز التواضع في طلب العلم إلى حيّز الغرور والتبجح والاستطالة بعلم ليسوا منه في قبيل ولا دبير .

فإليك يارب المشتكى وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك.

---

(٣٢) بيان إعجاز القرآن ص٢٣ ضمن ثلاث رسائل . ط دار المعارف .

ترجمة موجزة للقاضي عياض وآثاره العلمية

اسمه : عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض – أبو الفضل اليحصبي ، السَّبتي الغرناطي الأندلسي ، القاضي ، الإمام العلامة المالكي .

اليحصبي : بفتح الياء وسكون الحاء وضم الصاد وفتحها وكسرها نسبة إلى يحصب بن مالك ، قبيلة من حمير .

والسَّبتي : نسبة إلى مدينة سبتة من بلاد المغرب الأقصى .

والغرناطي : نسبة إلى غرناطة – المدينة الأندلسية المشهورة .

مولده : ولد بمدينة سبتة في شهر شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة (٤٩٦هـ) فهو أندلسي الأصل والنشأة والمربى .

قال ابنه محمد : كان أجدادنا في القديم بالأندلس ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس المغربية ، وكان لهم استقرار بالقيروان ، لا أدري قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك وانتقل عمرون – الجد الرابع – إلى سبتة بعد سكنى فاس .

رحلاته العلمية : رحل القاضي عياض – رحمه الله تعالى وأثابه – في سبيل العلم والبحث إلى الأندلس سنة تسع وخمسمائة (٥٠٩هـ) طالبا للعلم فأخذ بقرطبة عن مجموعة غير قليلة من العلماء ... وأجاز له بعضهم.

ثم انتقل إلى المشرق ، فأخذ عن مجموعة أخرى من العلماء .. فهو بذلك جمع إلى جانب علم المغاربة علوم المشارقة ، حيث نهل من المنبع والمصب معاً .

أساتذته وشيوخه : تتلمذ القاضي عياض على جهابذة أعلام وشيوخ كرام سمع منهم وأخذ عنهم فكان له ما أراد من معرفة جمة وعلم غزير ...

ففي قرطبة : أخذ عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين كما أخذ عن أبي الحسين ابن سراج، وأبي محمد بن عتاب وغيرهم، وأجاز له أبو علي الغساني.

وفي المشرق : أخذ عن القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفين ، وأخذ أيضاً عن أبي عبد الله المازني ، وأجاز له الشيخ أبو بكر الطرطوش..

وذكر ولده محمد مجموعة أخرى من الشيوخ منهم : أحمد بن بقي ، وأحمد بن محمد بن محمد بن مكحول ، وأبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي ، والحسن بن محمد بن سكره ، والقاضي أبو بكر ابن العربي ، والحسن بن علي بن طريف ، وخلف بن إبراهيم بن النحاس ، ومحمد بن أحمد بن الحاج القرطبي ، وعبد الله بن محمد الخشني وغيرهم .

ومن شيوخه أيضاً القاضي أبو الوليد ابن رشد .

وقال صاحب الصلة البشكوالية – بعد أن ذكر بعض شيوخه- : وقد اجتمع له من الشيوخ بين من سمع منه وبين من أجاز له مائة شيخ .

مكانته العلمية ووظائفه التي تولاها :

وكانت الحصيلة العلمية التي استقاها من هؤلاء العلماء كبيرة جداً ، حتى قالوا إنه صار إمام وقته في الحديث وعلومه ، والتفسير وجميع علومه وأنه جمع من الحديث كثيراً ، حيث كانت له عناية كبيرة به ، واهتمام بجمعه وتقييده ، كما صار من أهل التفنن في العلم ، واليقظة والفهم ، حتى إنه بعد عودته من رحلاته العلمية أجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه في المدينة وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عنها ، ثم أجلس للشورى ، ثم ولي قضاء بلده مدة طويلة ، حمدت سيرته فيها ، ثم نقل إلى قضاء غرناطة في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة (٥٣١هـ) .

ولقد أشاد العلماء والمترجمون له بمكانته العلمية حتى قالوا : إنه كان فقيها أصولياً ، عالما بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم بصيراً بالأحكام ، حافظا لمذهب الإمام مالك – رضي الله تعالى عنه – ريّانا في علم الأدب ، خطيباً بليغاً ، وقد جمع المعّرى سيرته وأخباره في كتاب (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض) كما تحدثوا عن أخلاقه فقالوا : كان كريم الأخلاق ، صبوراً حليماً ، جميل العشرة ، جواداً سمحاً ، كثير الصدقة ، دءوبا على العمل ، صُلبا في الحق .

ونظراً لمكانته العلمية والدينية قربه الموحدون – حكام المغرب في عصره – حيث رحل إلى أميرهم بمدينة " سلا " فأجزل له العطاء ، وأوجب بره ، وظل في رحابهم إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة (٥٤٣هـ) حيث رحل إلى مراكش مشرداً بعيداً عن

وطنه ، فكانت بها وفاته فى شهر جمادى الآخرة ، وقيل فى شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٥٤٤هـ) ودفن – رحمه الله تعالى – بباب إيلان [٣٣] .

مؤلفاته :

كان طبيعياً لرجل مثل القاضى عياض بعد هذا التفقه ، وذلك التلقى والتنقل فى طلب العلم ، أن يؤلف الكتب الكثيرة ، وأن يصنف المؤلفات الوفيرة التى سار بها الركبان ، يشهرون بها اسمه ، ويذيعون صيته ، بل ويعلون قدره ، ومن هذه الكتب والمؤلفات نذكر :

١–الإعلام بحدود قواعد الإسلام .

٢–الإلماع فى ضبط الرواية ، وتقييد السماع .

٣–بغية الرائد لما تضمنه حديث " أم زرع " من الفوائد .

٤–ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك .

٥–التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة ، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحرير المسائل .

٦–الشفا بتعريف حقوق صاحب الاصطفا ﷺ أبدع فيه كل الإبداع وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه ، ولم ينازعه أحد فى الانفراد به ، ولا أنكر وافرية السبق إليه ، بل تشوفوا للوقوف عليه ، وأنصفوا فى الاستفادة منه، وحمله الناس عنه ، وطارت نسخه شرقاً وغرباً .

٧–الغنيمة ..فى شيوخه .

٨–مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور .

٩–مشارق الأنوار فى تفسير غريب حديث الموطأ والبخارى ومسلم ، وضبط الألفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات ، وضبط أسماء الرجال ، وهو كتاب – كما تقول المصادر – لو كتب بالذهب ، أو وزن بالجوهر لكان قليلاً فى حقه ، وفيه أنشد بعضهم :

مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق بالغرْب

١٠–المعجم فى شيوخ ابن سكره .

١١–المعلم فى شرح صحيح مسلم .

١٢–نظم البرهان فى حجة جزم الأذان .

ومن مؤلفاته التى وافته المنية قبل أن يكملها :

---

(٣٣) انظر: ترجمته فى كتاب " الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب " للعلامة برهان الدين ابن فرحون المالكى .

١٣-كتاب أجوبة القرطبيين .

١٤-كتاب أجوبته عما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام في سفر .

١٥-الأجوبة المخبرة على الأسئلة المتخيرة .

١٦-كتاب خطبه .

١٧-سر السراة في أدب القضاة .

١٨-العيون الستة في أخبار سبتة .

١٩-غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسل .

٢٠-المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان [٣٤].

ولقد ضاع معظم هذه المؤلفات ، ولم يبق إلا النذر اليسير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

شعره :

هذا وقد كان للقاضي عياض بجوار ثقافته العلمية الدينية التي كان من نتيجتها تلك المؤلفات العديدة ذوق أدبي وموهبة شعرية حسنة .

وإن كنت ترى في شعره أو في أغلبه أنه كان يهيم بالصور البديعية هياماً ملك عليه نفسه وحسه ، وبالأخص الجناس ، ولزوم ما لا يلزم .

فتراه يقول :

يا من تحمّل عني غير مكترث ... لكنه للضنا والسقم أوصى بي
تركتني مستهام القلب ذا حرق ... أخا جوى وتباريح وأوصاب

ويقول:

الله يعلم أني منذ لم أركم ... كطائر خانه ريش الجناحين
فلو قدَرتُ ركبت الريح نحوكم ... فإن بعدكم عني جنى حَيْني

ومنه ما رواه عنه ولده أبو عبد الله محمد قاضي دانيه ، قال : أنشدني لنفسه في خامات زرع بينها شقائق النعمان هبت عليها ريح :

---

(٣٤) يراجع في كل ما تقدم الأعلام للزركلي ٥/٩٩ ط دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ، وفيات الأعيان ٣/١٥٢ ت:أ/ محمد محي الدين عبد الحميد ط أولى ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م ط ١ السعادة .

انظر إلى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح
لتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

الخامة : القصبة الرطبة من الزرع .

وأُنشد أيضاً للقاضى فى لزوم ما لا يلزم :

إذا ما نشرت بساط انبساط فعنه فديتك فاطو المزاحا
فإن المزاح على مما حكاه أولوا العلم قبلى عن العلم زاحا

وقد مدحه أبو الحسن ابن هارون المالقى بقوله :

ظلموا عياضاً وهو يَحلمُ عنهم والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الداء عينا فى اسمه كى يكتموه فإنه معلوم
لولاه ما ناحت أباطح سِبتةٍ والروض حول فنائها محروم

رضى الله تبارك وتعالى عن الإمام القاضى عياض وجزاه الله تعالى عن القرآن والعلم خير الجزاء وأوفاه وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله فى كل لحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

وجوه الإعجاز القرآنى عند القاضى عياض – رحمه الله تعالى وأثابه

لم يخصص القاضى عياض للإعجاز القرآنى كتاباً مستقلاً ، ولكنه تناول هذا الموضوع فى خلال كتابه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " ﷺ وذلك فى الفصل الرابع عند حديثه عن معجزات رسول الله ﷺ فقد خصص فصلاً جيداً عن الإعجاز القرآنى جعل عنوانه : " فصل فى إعجاز القرآن " تناول فيه أوجه الإعجاز القرآنى كما يراها هو ، فهو يرى أن الإعجاز القرآنى ينحصر فى أربعة أوجه :

أولها : حسن تأليفه ، وإلتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب ... إلخ .

وثانيها : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب ، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ، ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفت مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته إليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ...

وثالثها: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، وما لم يكن ولم يقع ، فوجِدَ كما ورد على الوجه الذى أخبر ...

ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك ...

وسوف نضع هذه النصوص بين أيدينا لتكون على بساط البحث ونستخلص منـــها رأى القاضى عياض فى إعجاز القرآن البيانى ، كى يتضح جهده فى هذا الميدان ونكشف عن رأيه أولاً ، وبيان مدىَ ما قدمه لهذه الفكرة من الجديد مع الاقتصار على الوجهين الأولين اللذين يختصان ببيان الإعجاز البلاغى .

فى بيان الوجه الأول

قال القاضى – رحمه الله تعالى وأثابه – : اعلم – وفقنا الله تعالى – وإياك – أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة أوجه :

أولها: حسن تأليفه والتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقـــة عـــادة العرب ؛ وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفُرسان الكلام، قد خُصوا من البلاغة والحِكَمَ ما لم يُخَصَّ به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذَرَابة اللسان [٣٥] ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيّد الألباب ، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوةً ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويُدْلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات وشديد الخَطْب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوّقون من أوصافهم أجمل من سِمْط [٣٦]اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصِّعاب ، ويذهبون الإحن [٣٧] ، ويهيجون الدِّمن [٣٨] ، ويجرِّءُون الجبان ، ويبسطون يد الجَعْد [٣٩]البنان ، ويصيرون الناقص كاملاً ، ويتركون النبيه خاملاً ، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى ، والمترَع القوىّ ، ومنهم الحضـــرى ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القـــول

---

(٣٥) ذَرَابة اللسان : بفتح الذال أى حدته وبساطته وسلاطته وطلاقته مع الخلو عن الكلنة .

(٣٦) سِمْط اللآلى : بكسر السين وهو الخيط ما دام فيه الخرز وإلا فهو سلك .

(٣٧) الإحَن : بكسر الهمزة جمع إحنة وهى الحقد والضغينة وإضمار السوء .

(٣٨) الدِّمَن : بكسر الدال : جمع دِمْنة ، وهى فى الأصل ما تدمنه الإبل ونحوها بأبوالها وأبعارها أى تلبده فى مرابضها ثم استعمل فى الحقد لتلبده فى باطنه ولكونه من دمائم خاطره .

(٣٩) الجعد البنان : أى البخيل اللئيم الشأن .

القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية ، ولهم في البلاغة الحجة البالغة ، والقوة الدامغة ، والقدح[٤٠] الفالج ، والمهيع [٤١] الناهج ، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قد حوَوْا فنونها ، واستنبطوا عيونها ، ودخلوا من كل باب من أبوابها ، وعَلَوْا صرحاً [٤٢] لبلوغ أسبابها ، فقالوا في الخطير والمهين ، وتفننوا في الغث [٤٣] والسمين ، وتقاولوا في القَلّ والكثر ، وتساجلوا [٤٤] في النظم والنثر فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، أحكمت آياته ، وفُصِّلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتظافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارتْ في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه ، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه ، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم – أي العرب – أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً ، وأشهر في الخطابة رجالاً ، وأكثر في السجع والشعر مجالاً ، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً ، وبلغتهم التي بها يتحاورون ، ومنازعهم التي عنها يتناضلون ، صارخاً بهم في كل حين ، ومقرعاً لهم بضعاً وعشرين عاماً على رؤوس الملأ أجمعين ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٤٥] ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [٤٦] ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٤٧] وقيل ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [٤٨]

---

(٤٠) السهم الفائز الغالب .

(٤١) الطريق الواسع الواضح المسلوك .

(٤٢) الصرح : القصر وكل بناء عال .

(٤٣) الغث : المهزول .

(٤٤) تساجلوا : تفاخروا .

(٤٥) سورة يونس الآية ٣٨ .

(٤٦) سورة البقرة الآيتان ٢٣، ٢٤ .

(٤٧) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

(٤٨) سورة هود الآية ١٣ .

وذلك أن المفترى أسهل ، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب ، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب ، ولذا قيل : فلان يكتب كما يقال له ، وفلان يكتب كما يريد ، وللأول على الثاني فضل ، وبينهما شأو بعيد ، فلم يزل ﷺ يقرعهم أشد التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويذم آلهتهم وآباءهم ، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم في كل هذا ناكصون وعن معارضته محجمون وعن مماثلته مخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب ، والإغراء بالافتراء ، وقولهم ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (٤٩) ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (٥٠) و﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ (٥١) و﴿ إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾ (٥٢) و﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ (٥٣) والمباهتة والرضى بالدنيئة .. كقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ (٥٤) و ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ (٥٥) و ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٥٦)

والادّعاء مع العجز بقولهم ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ (٥٧) وقد قال لهم الله ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ (٥٨) فما فعلوه وما قدروا .

ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عَوَارَه (٥٩) لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم ، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصحائهم ولا جنس

---

(٤٩) سورة المدثر الآية ٢٥ .

(٥٠) سورة المدثر الآية ٢٤ .

(٥١) سورة القمر الآية ٢ .

(٥٢) سورة الفرقان الآية ٤ .

(٥٣) سورة الفرقان الآية ٥ .

(٥٤) سورة البقرة الآية ٨٨ .

(٥٥) سورة فصلت الآية ٥ .

(٥٦) سورة فصلت الآية ٢٦ .

(٥٧) سورة الأنفال الآية ٣١ .

(٥٨) سورة البقرة الآية ٢٤ .

(٥٩) عَواره : بالفتح والضم أفصح أي أظهر عيب نفسه .

بلاغتهم ، بل ولّوا عنه مدبرين وأتوا مذعنين ، من بين مهتد وبين مفتون ، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبى ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ . . . الآية ﴾ [٦٠] قال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة [٦١] وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر .

وذكر أبو عبيد [٦٢] أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [٦٣] فسجد وقال : سجدت لفصاحته .

وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [٦٤] فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وحكى أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يوماً نائماً فى المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق ، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلاً من أسراء المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة ، وهى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ . . . الآية ﴾ [٦٥] .

وحكى الأصمعى [٦٦] أنه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله . ما أفصحك ؟ فقالت: أويعد هذا فصاحة بعد قول الله – تعالى – :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . . . الآية ﴾ [٦٧] ،

---

(٦٠) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٦١) الطلاوة : مثلثه الطاء أى رونقا وحسنا فائقاً .

(٦٢) هو القاسم بن سلاّم البغدادى وستأتى ترجمته فى موضعها .

(٦٣) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(٦٤) سورة يوسف الآية ٨٠ .

(٦٥) سورة النور الآية ٥٢ .

(٦٦) هو عبد الملك بن قريب بن أصمع المصرى صاحب اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر ولد سنة ١٢٣هـ بالبصرة وتوفى بها سنة ٢١٠هـ .

(٦٧) سورة القصص الآية ٧ .

فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين . فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره على التحقيق وعلى الصحيح من القولين .

وكون القرآن من قبل النبي ﷺ وأنه أتى به معلوم ضرورة وكونه ﷺ متحديا بـه معلـوم ضرورة ، وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة ، وكونه في فصاحته خارقاً للعادة معلـوم ضرورة للعَالِم بالفصاحة ووجوه البلاغة ، وسبيل من ليس من أهلها علْم ذلك يعجزُ المنكـرين من أهلها عن معارضته ، واعتراف المقرّين والمفترين بإعجاز بلاغته ، وأنت إذا تأملت قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٦٨) وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (٦٩) وقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٧٠) وقوله ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ . . . . . الآية ﴾ (٧١) وقوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً . . . الآية ﴾ (٧٢) وأشباهَها من الآى ، بل أكثر القرآن ، حققت ما بينته مـن إيجـاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة (٧٣) عبارتها ، وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها ، وأن تحـت كل لفظة منها جملاً كثيرة وفصولاً جمة وعلوما زواخر (٧٤)، مُكنت الدواوين من بعض ما استفيد منها ، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصـحاء عندها الكلام ، ويذهب ماء الكلام آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض ، والتئـام سـرده وتناصف وجوهه ، كقصة يوسف على طولها ، ثم إذا ترددت (٧٥) قصَصه اختلفت العبـارات

---

(٦٨) سورة البقرة الآية ١٧٩ .

(٦٩) سورة سبأ الآية ٥١ .

(٧٠) سورة فصلت الآية ٣٤ .

(٧١) سورة هود الآية ٤٤ .

(٧٢) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

(٧٣) الديباجة : جمال الأسلوب .

(٧٤) زواخر : وافرة كثيرة مفردها زاخرة .

(٧٥) ترددت : كرر ذكرها .

عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تنسّى في البيان صاحبتها وتناصف في الحسن وجه مقابلتها ، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمُعَادها .

تحليل الوجه الأول عند القاضي :

تناول القاضي عياض الوجه الأول من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو الإعجاز البلاغي الذي عليه الأكثرون من علماء النظر وقد سبقه في هذا الجانب كثيرون من العلماء كالفراء ٢٠٧هـ والجاحظ ٢٥٥هـ وابن قتيبة ٢٧٦هـ والرماني ٣٨٦هـ والخطابي ٣٨٨هـ والباقلاني ٤٠٣هـ وعبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ .

وقد أفاض القاضي في الحديث عنه وأجاد لأنه تكلم فيه عن اختيار ألفاظه وحسن تأليفها ، وفصاحة كلماته والتئامها ، الأمر الذي جعل القرآن متشاكل الأجزاء مستقيم الأسلوب .

وهذا هو ما أشار إليه الخطابي بقوله : " اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات : هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فُصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة " [٧٦].

ويقول في موضع آخر : " وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تاملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لاترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه " [٧٧] .

ويقول الإمام عبد القاهر : " اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفظ هو به أخص وأولى وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، ومأخذا إذا أُخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل ، وإذا كان الشئ متعلقاً بغيره ومقيساً على ما سواه ، كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الأفهام، وتقريره في

---

(٧٦) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٢٩ ط دار المعارف بمصر ت: محمد خلف الله ، د/ محمد زغلول سلام سنة ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م .

(٧٧) نفس المرجع والصفحة .

النفوس ، أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويؤنس به ، ويكون زماما عليه يمسكه على المتفهم له والطالب علمه " (٧٨) .

ويقرر ذلك كله العلامة ابن عطية فى مقدمة تفسيره فيقول : " الصحيح ، والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه ، وذلك أن الله تعالى أحاط بكل شئ علما ، وأحاط بالكلام كله ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة .

وبهذا يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط ، ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً ثم ينظر فيها فيغير فيها ، وهلم جرا ، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد " (٧٩) .

عجز العرب عن الإتيان بمثله دليل على الإعجاز .

ثم يعلل القاضى عياض جهة الإعجاز فى هذا الوجه المهم من وجوه إعجاز القرآن الكريم من حيث حسن التأليف والتئام الكلام وبلاغته الخارقة عادة العرب ، وذلك أن الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته اعترافاً بالحق وربْئا بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الإفصاح مع أنهم أهل القدوة فى أفانين الكلام نظماً ونثراً وترغيباً وزجراً ، ومدحاً وذماً قد خصوا من بين الأمم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعانى ، فلا يستصعب عليهم سابق من المعانى ولا يجمع بهم عسير من المقامات " لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قد حووا فنونها ، واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها ، وعلوا صرحاً لبلوغ أسبابها " (٨٠) .

---

(٧٨) الرسالة الشافية فى الإعجاز للإمام عبد القاهر ص٢٦ ت: أ.د/ عبد القادر حسين ط دار الفكر العربى ط١ سنة ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .

(٧٩) مقدمة المحرر الوجيز لابن عطية ص٢٧٨- ٢٨٠ مع اختصار وتصرف .

(٨٠) الشفا للقاضى عياض . الوجه الأول من وجوه الإعجاز .

من الخصائص القرآنية التي أعجزت العرب .

ثم أشار القاضي عياض إلى بعض خصائص القرآن الكريم التي تميز بها عن سائر الكلام ، والتي أعجز البلغاء والفصحاء محاكاتها فقال " فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،تنزيل من حكيم حميد ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتظافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه ، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه ، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه " [٨١] .

آيات التحدي والإعجاز .

ثم عاد القاضي إلى الإخبار عما كان عليه العرب من التمكن في باب الفصاحة والبلاغة ، وأنهم أشهر الناس في الخطابة رجالاً وأكثرهم في السجع والشعر سجالاً وارتجالاً ، أي محاورة وانتقالا من كلام إلى كلام ومن مرام إلى مرام بقوة تفننهم في نوعي الكلام ، كما أنهم أوسع ممن عداهم في الغريب واللغة مقالاً ، بلغتهم التي بها يتحاورون ومنازعهم التي عنها يتناضلون .

فجاء القرآن صارخا بهم يدعوهم لمعارضته في كل حين من ليل أو نهار منفردين أو مجتمعين تسجيلاً عليهم بإنكارهم للدين واستكبارهم عن الحق معرضين ، ومقرّعا لهم بضعا وعشرين عاماً على رؤوس الخلائق أجمعين ، فقال سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٨٢] .

وهذا توبيخ وتقريع بعجزهم عن أقل مراتبه ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [٨٣] .

([٨١]) الشفا – الوجه الأول من وجوه الإعجاز .

([٨٢]) سورة يونس الآية ٣٨ .

([٨٣]) سورة البقرة الآيتان ٢٣، ٢٤ .

وهذه الآية أبلغ مما قبلها ، للدلالة على عجزهم عن المعارضة في الأزمنة الحاضرة والمستقبلة ، مع إخباره سبحانه بأن الخلق كلهم عاجزون عن الإتيان بمثله إلى يوم القيامة ، وهذا صريح في قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٤) .

يعني أنه لو فرض اجتماع الثقلين فيه ، وظاهر بعضهم بعضاً وعجزوا عن المعارضة كان الواحد أعجز .

وقال سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨٥) .

فالحاصل أنه ألزمهم الحجة بإتيان قرآن مثله ، ثم أرخى العنان بتنزله إلى عشر سور مثله ثم تحداهم بسورة واحدة كائنة من عندهم تسهيلاً للأمر عليهم ، وتسجيلاً بنداء العجز لديهم ، كذا قرره الشراح (٨٦).

ثم يعلل القاضي ذلك التحدي على سبيل التهكم والتقريع بقوله : " وذلك أن المفترى أسهل ، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب " ومع ذلك لم يجدوا إليه سبيلاً ، ثم يقول : " واللفظ إذا اتبع المعنى الصحيح كان أصعب " أي أن اللفظ بعد وضعه في المبنى الفصيح إذا اتبع المعنى الصحيح كان أصعب ترتيباً وأتعب تهذيباً ، لأنه يلاحظ فيه ما في الواقع ونفس الامر ثم يؤتى باللفظ على طِبقه وترتيبه بحيث لا يخرج عنه ، وهذا أيضاً وجه عجزهم عن المعارضة ، لأن القرآن جمع بين غرائب المعاني وعجائب البيان (٨٧).

---

(٨٤) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

(٨٥) سورة هود الآية ١٣ .

(٨٦) شرح ملا على القاري على الشفا : ٢/٧٧٤، ٧٧٥ ت : فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف ط مطبعة المدني بلا تاريخ .

(٨٧) ينظر: المرجع السابق مع شرح الخفاجي على الشفا المسمى بنسيم الرياض ج٢/٤٨٣ ط دار الفكر .

ولكون المبنى إذا اتبع المعنى أصعب في المدعى قال الأدباء ومن لهم دراية في صناعة الكلام :" فلان يكتب كما يقال له " أي يكتب الرسائل والحكم والمواعظ فيفتق أكمام ما قيل له من أخبار مبنية عن أزهار معانيه ، ويراعي جميع ما يوافيه بتحريره،ويدفع كل ما ينافيه بتقريره حتى يستحسنه المملي،إذ عبّر عن مراده في شأنه ما كان عاجزا هو عن إيراد بيانه.

أما قولهم : " وفلان يكتب كما يريد " فمعناه أنه يكتب بنفسه من كل ما يطرؤ على خاطره من غير نظر لصدقه وكذبه ، فإذا صعب عليه التعبير عن معنى عدل عنه لغيره فهو يكتب كما يريد لا كما يراد منه .

وهذا إشارة إلى ما حكي عن بديع الزمان أنه رتب له راتب بين كَتَبَة الديوان ، فلم يقدر على كتابة الرسائل ، فلما أخبر الصاحب بذلك قال : دعوه فإنه يكتب كما يريد لا كما يراد ، وحكي مثله عن الحريري أيضاً[٨٨] وللأول على الثاني فضل وبينهما تفاوت بعيد ، لإتيان الأول بالمأمور مفرغا في قالب مراد آمره دون الثاني ، لإتيانه بمأموره في قالب مراد نفسه.

موقف العرب حين تحداهم القرآن فعجزوا :

ثم انتقل القاضي – رحمه الله تعالى– إلى موقف العرب حين تحداهم القرآن فقال : " فلم يزل ﷺ يقرعهم أشد التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم بقوله :﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[٨٩] وقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [٩٠] .وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ [٩١] وغير ذلك من الآيات التي تذمهم وتذم آلهتهم التي عبدوها من دون الله .

---

(٨٨) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٨٩)سورة الأعراف الآية ١٩٥ .

(٩٠) سورة الفرقان الآية ٥٥ .

(٩١) سورة العنكبوت الآية ٤١.

" وهم في كل هذا ناكصون ، وعن معارضته محجمون وعن مماثلته مخادعون أنفسهم بالتشغيب والإغراء بالافتراء " وقولهم ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [٩٢] و﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [٩٣] و﴿ إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾ [٩٤] و﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ [٩٥] والمباهتة ، والرضا بالدنيئة ، كقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [٩٦] و ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [٩٧] و﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [٩٨] .

والادعاء مع العجز بقولهم ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ [٩٩] ، وقد قال لهم الله : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ [١٠٠] فما فعلوا ولا قدروا .

يعني أنه سبحانه نفى قدرتهم في المستقبل ، فلو قدروا لحميتهم فعلوا ولكنهم لم ينطقوا ببنت شفة مع شدة غيرتهم واشتعال نار حميتهم .

من أقوال من توهموا المعارضة من السخفاء .

يقول القاضي :" ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عُواره لجميعهم ، وسلبهم ما ألفوه من فصيح كلامهم ، وإلا فلم يخف على أهل المَيْز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين من بين مهتد وبين مفتون " .

يشير القاضي في كلامه السابق إلى ما ذكره الخطابي في رسالته قائلاً : " فإن قيل ما أنكرتم أن المعاضة قد حصلت لبعضه ، وهو ما بلغ مقداره عدد الآي من بعض السور القصار نحو ما حكي عن مسيلمة من قوله : يا ضفدع نَقِي [١٠١] كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين "

---

(٩٢) سورة المدثر الآيتان ٢٤، ٢٥ .
(٩٣) سورة القمر الآية ٢ .
(٩٤) سورة الفرقان الآية ٤ .
(٩٥) سورة الفرقان الآية ٥ .
(٩٦) سورة البقرة الآية ٨٨ .
(٩٧) سورة فصلت الآية ٥ .
(٩٨) سورة فصلت الآية ٢٦ .
(٩٩) سورة الأنفال الآية ٣١ .
(١٠٠) سورة البقرة الآية ٢٤ .
(١٠١) نقٌ الضفدع والعقرب والدجاجة ينق بكسر النون نقيقاً صوت .

وكما حكي عن بعضهم من قوله " ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى بين شرا سيف وحشى " وكما قال آخر منهم : " الفيل وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل له مشفر طويل وذنب أثيل ، وماذاك من خلق ربنا بقليل " قيل : أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم أنه كلام خال من كل فائدة ، لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شئ من الشرائط الثلاث [١٠٢] التي هي أركان البلاغة ، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل ما فيه من السجع والساجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه ، ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت ، وخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر ﷺ حين طرق سمعه : " أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال " [١٠٣] أي من قلب .

وذلك أنه لما قدم وفد اليمامة على أبي بكر ﷺ بعد قتل مسيلمة ، قال لهم ما كان صاحبكم يقول ؟ فاستعفوه من ذلك ، فقال : لتقولُن – بضم اللام الثانية – قالوا : كان يقول .... : وذكروا الكلام السابق [١٠٤].

ثم قال الخطابي : وأخبرني ابن الفارسي محمد بن القاسم بن الحكم قال: أخبرني أبي قال : أخبرني إبراهيم بن هانئ ، قال : أخبرني يحيى بن بكير قال : أخبرني الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن سعيد بن نَشيط قال : بعث رسول الله ﷺ عمرو ابن العاص إلى البحرين ، فتوفي رسول الله ﷺ وعمرو ثم ، قال عمرو : فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطاني الأمان ، ثم قال : إن محمداً أرسل في جسيم الأمور وأرسلت في المحقرات ، فقلت : أعرض علي ما قلت فقال : يا ضفدع نقي فإنك نعم ما تنقين لا وارد تنفرين ولا ماء تكدرين ، يا وبر يا وبر يدان وصدر ، وسيرك جغر ونقْر ، ثم أتى أناس يختصمون إليه في نخل قطعها بعضهم لبعض فتسجى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال : والليل الأدهم والذنب الأسحم ما جاء بنو أبي مسلم من محرم ، ثم تسجى الثانية فقال : والليل الدامس والذنب الهامس ما حرمته رطبا إلا كحرمته يابس ، قوموا فلا أرى عيباً فيما صنعتم شيئاً . قال عمرو : أما والله إنك لتعلم أنك من الكاذبين . فتوعدني .

([١٠٢]) هي لفظ حامل ، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم .

([١٠٣]) بيان القرآن ص٧٤، ٧٥ ت : الشيخ عبد الله الصديق الغماري ط أولى ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م نشر مطبعة دار التأليف .

([١٠٤]) هامش رسالة بيان إعجاز القرآن للشيخ عبد الله الغماري ص٧٥ .

قلت : صدق عمرو . وهل يخالج أحداً شك فى ضلالة من هذا سبيله وسقوط من هذا برهانه ودليله ، وأى بلاغة فى هذا الكلام ؟ وأى معنى تحته ؟ وأى حكمة فيه ؟ حتى يتوهم أن فيه معارضة للقرآن أو مباراة له فى وجه من الوجوه ، ولكن البائس أعلم بنفسه حين يقول أرسلت فى المحقرات ، ولا يراد أحقر مما جاء به وأقل [١٠٥].

الأقوال الدالة على عجز العرب حين تحدوا بالقرآن .

ثم يستطرد القاضى – رحمه الله تعالى – فى ذكر الأخبار التى جاءت عن العرب فى تعظيم شأن القرآن وفى وصفه بما وصفوه به فقال : " ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبى ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [١٠٦] قال : " والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر " [١٠٧].

أى ليس هذا من كلام البشر لحلاوة نظمه وبديع أسلوبه وبلاغة معانيه وجزالة مبانيه ، يعنى أنه ليس مفترى مختلقاً .

وخص البشر لأنهم المعروفون بالبلاغة ، وإلا فهو معجز للجن أيضاً ، مع أن فى هذا الخبر التصريح بذلك حيث قال : " وليس بشعر فما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، وإنه ليعلوا وما يُعلى وإنه ليحطم ما تحته " كما رواه البيقهى فى الدلائل [١٠٨] .

وذكر أبو عبيدة [١٠٩]: أن أعرابياً سمع رجلا يقرأ:﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١١٠] فسجد وقال : " سجدت لفصاحته " وكان موضع التأثير فى هذه الجملة هو كلمة " فاصدع " فى إبانتها عن الدعوة ، والجهر بها والشجاعة فيها ، وكلمة (بماتؤمر) فى إيجازها وجمعها .

---

(١٠٥) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص٧٥-٧٧ .

(١٠٦) سورة النحل الآية ٩٠ .

(١٠٧) رواه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن عباس بإسناد جيد . ورواه ابن اسحاق فى سيرته .

(١٠٨) ينظر: شرح الخفاجى على الشفا ٤٨٨/٢ .

(١٠٩) هو الإمام الحافظ القاسم بن سلاّم البغدادى . من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه والقراءات واللغة والنحو والتاريخ ، كان ممن أخذ الفقه عن الإمام الشافعى ، قال الخطيب كان أبوه سلاّم عبدا روميا لرجل من أهل

وقوله " سجدت لفصاحته " لأنها ليست آية سجدة ، وإنما هزه العجب لفصاحته وبلوغه غاية بلاغته حتى ذل ومرغ وجهه فى التراب ، وكان معروفاً فى مثله ، حتى قال بعضهم : للشعر سجدت ، وليس المعنى سجدت لله لأجل فصاحته كما توهم وضمير " فصاحته " للكلام المقروء ، ولا مقارنة كما توهم؛ لأنه لا يناسب المقام [١١١].

وسمع رجلاً آخر يقرأ :﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [١١٢] فقال: " أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام " .

وإنما قال الأعرابى هذا الكلام لإعجازه وبلاغته وخروجها عن طوق البشر ، وذلك لإيجازها وجمعها للمعانى الكثيرة فى كلمات قليلة ، فإنك إذا وازنت قولك : " لما لم يطعهم يوسف – عليه السلام – ولم يحبهم ذهبوا وتشاوروا فيما يقولون بعد هذا ، وكيف يرجعون لأبيهم " بهذا النظم البديع عرفت بالذوق أنه لا مناسبة بينهما [١١٣].

وحكى أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يوما نائماً فى المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق ، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة [١١٤] الروم – ممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم ؛ قال : فتأملتها فإذا قد جُمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة ، وهى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[١١٥]

يعنى أن هذه الآية قد جمعت أسباب الفوز فى الآخرة وأيضاً فى الدنيا . لأن الطاعة : امتثال الأوامر واجتناب النواهى والخشية : الخوف . وهى تتعلق بالخصوص بما عسى أن يكون قد فرط

هراة ، وروى عند ابن أبى الدنيا وغيره توفى سنة ٢٢٤هـ (من مؤلفاته : الغريب المصنف ، الظهور ، فضائل القرآن).

(١١٠) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(١١١) نسيم الرياض للخفاجى ٤٨٨/٢ ، ٤٨٩ .

(١١٢) سورة يوسف الآية ٨٠ .

(١١٣) يراجع : نسيم الرياض ٤٨٩/٢ .

(١١٤) هو القائد أو الأمير فى لغتهم .

(١١٥)سورة النور : ٥٢ .

فيه من التكاليف ، على أنها تعم التقصير كله . والتقوى : الحذر من مخالفة التكاليف فى المستقبل . فالآية على وجازتها قد جمعت الأحوال التى تلزم العبد فى الدنيا التى هى سبب للفوز والنجاح فى الآخرة [١١٦].

وحكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك !! فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١١٧] .

فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

والكلام الذى سمعه الأصمعى من الجارية هو قولها :

أستغفر الله لذنبى كله ... قتلت إنساناً لغير حله
مثل غزال ناعم فى دلّه ... انتصف الليل ولم أصله

وقوله : " قاتلك الله ما أفصحك " تعجب من فصاحة لسانها ، وبالغ فى تعجبه فإنها تقال لمن أتى بأمر بديع غريب ، وهى فى الأصل جملة دعائية يراد بها شدة الاستحسان ، أى هى حقيقة بأن يقال لها ذلك تعجباً من بلاغتها ، كما يقال : قاتله الله ما أعجب فعله ، أى بلغ فى الكمال غاية لم يصل إليها غيره ، فاستحق أن يجسد فيه فيدعى عليه [١١٨].

وقوله " فقالت أو يعد هذا فصاحة القرآن إذ لا يقال لكلام غيره إنه فصيح لما سمعه فإنه أزرى بكل فصاحة بعد قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ أى لا يعد هذا فصاحة مع فصاحة فصيرها كالعدم كالمتاع النفيس إذا نشر بجنب ما هو أعظم نفاسة منه فإنه يعد غير نفيس كما قيل:

ولا قبح فيها غير أن جمالها ... يصيرَ كل الفاتنيات قباحاً [١١٩]

([١١٦]) ينظر: تفسير التحرير والتنوير ٢٧٦/١٨ .
([١١٧]) سورة القصص الآية ٧ .
([١١٨]) يراجع شرح ملا على القارى وشرح الخفاجى كلاهما على الشفا ٤٩٠/٢ .
([١١٩]) شرح الخفاجى ٤٩٠/٢ .

والخبران هما : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ وقوله : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ لأنه يُشعر بأنها ستخاف عليه .

والأمران هما : " أرضعيه " و " ألقيه " .

والنهيان : " ولا تخافى ولا تحزنى " والبشارتان : " إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين " [١٢٠].

فكانت هذه الآية مثالاً من دقائق الإعجاز القرآنى . لما اشتملت عليه من غاية الفصاحة ونهاية البلاغة .

ومن ثم يقول القاضى – رحمه الله تعالى – " فهذا نوع من إعجازه ، متفرد بذاته ، غير مضاف إلى غيره " – أى من أنواعه المتعلقة بصفاته من حيث إخباره بالمغيبات وإنبائه عن أحكام العبادات والمعاملات والمأمورات والمنهيات " على التحقيق وعلى الصحيح من القولين " .

والمراد بالقولين هنا : القول بأن إعجاز القرآن هل هو بمجموع بلاغته وأسلوب نظمه ، أو هو متحقق بكل واحد منهما على حدته وانفراده بدون إضافة أحدهما إلى الآخر ؟ فإن كلا منهما خارق للعادة خارج عن طوق البشر ، وهذا هو المتبادر من سياقه .

وقيل : المراد بالقولين : القول بأن إعجازه ببلاغته التى لا يرتقى أحد إلى مرتبتها . والقول بأنه معجز بغير ذلك كالصَّرفة والإخبار بالمغيبات ولا شك فى أن من يقول بإعجازه لبلاغته وأسلوبه يقول أيضاً بالنظر إلى معناه أيضاً، إذ لا يمكن قطع النظر عنه [١٢١].

والذى رجحه القاضى هو ما ذهب إليه الجمهور من العلماء وهو المشهور عندهم .

قال الخطابى : وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفى كيفيتها يعرض لهم الإشكال ويصعب عليهم منه الانفصال [١٢٢] ويعلل الخطابى وجه الإعجاز من هذه الجهة فيقول: " فدل النظر وشاهد العبر على أن السبب له والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية

---

(١٢٠) ينظر: التحرير والتنوير : ٢٠/٧٤، ٧٥ مع شرحى ملا على القارى والخفاجى ٢/٤٩٠ .

(١٢١) شرح الخفاجى ٢/٤٩٠ .

(١٢٢) البيان فى إعجاز القرآن للخطابى /٢٣ بتحقيق الشيخ عبد الله الغمارى .

، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز المطلق الرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شيء منه البتة.

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد فى نعوتها كالمتضادين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة لنبيه ﷺ ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه [١٢٣].

أمور معلومة بالتواتر وتوفر الدواعى على نقلها .

ثم انتقل القاضى عياض بعد ذلك إلى ذكر أمور معلومة بالضرورة لتواترها وتوفر الدواعى على نقلها فأشار إلى أمور أربعة :

الأمر الأول : " وهو كون القرآن من قِبل النبى ﷺ وأنه أُتى به معلوم ضرورة " أى نقله إلينا عن طريق الوحى الموحى إليه ، وقد وصل إلينا بالتواتر الذى يستحيل معه الكذب والافتراء ، وهذا أمر لا يحتاج إلى إقامة بينة ولا قيام حجة .

الأمر الثانى : " كونه ﷺ متحدياً به معلوم ضرورة " أى أنه ﷺ قد تحدى العرب وطلب منهم المعارضة بالإتيان بمثله أو بأقصر سورة منه كما نطقت بذلك آيات كثيرة فى القرآن الكريم معلومة للقاصى والدانى .

([١٢٣]) بيان إعجاز القرآن للخطابى / ٢٦، ٢٧ .

الأمر الثالث : " وعجز العرب عن الإتيان بمثله معلوم ضرورة " لأنهم وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظماً والتئاماً ، وإتقانا وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم ، ولو حك بيافوخه السماء ، موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول " [١٢٤] .

الأمر الرابع : " كونه في فصاحته خارقا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة " وذلك لأنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه .

قال الخطابي : " واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمنا أصح المعاني ، من توحيد له عزت قدرته – وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ، من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن ووعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعاً كل شئ منها موضعه الذي لا يُرى شئ أولى منه ، ولا يُرى في صورة العقل أمر أليق منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر يعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله " [١٢٥] اهـ .

ثم يقول القاضي : " وسبيل من ليس من أهلها علم ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته ، واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته " .

يشير إلى حال الفريق الثاني ، وهم الذين ليسوا من أهل الفصاحة وفنونها وطرق البلاغة ووجوهها ، فيكفيهم العلم بعجز المنكرين من أهل الفصاحة والبلاغة ، وأنه ليس من كلام البشر ، لأنه معجزة خارقة للعادة كما يكفيهم اعتراف المقرين بأنه كلام الله المعجز لهم ولغيرهم عن مناقضته والإتيان بمثله .

([١٢٤]) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ٣٩ ت : أ/ محمود شاكر نشر مطبعة المدني بالقاهرة ط ثالثة سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

([١٢٥]) البيان ص٢٩، ٣٠ .

ملحوظة على منهج القاضى :

ومما يلاحظ على منهج القاضى عياض فى تناوله للوجه الأول من الإعجاز أنه لم يذكر فيما ذكر طرق تأدية المعنى ، ومدى وجودها فى القرآن كغيره ممن سبقوه فى هذا الميدان كالخطابى والباقلانى وابن قتيبة والرمانى وعبد القاهر مثلا ، وكان حريًا به أن يفعل مثل ما فعلوا وإن كان يشفع له فى هذا المجال أنه لم ينس الإشارة إلى أمثلة هذه الصور الكلامية ، والآيات التى يحتوى عليها فى القرآن الكريم فهو وإن لم يذكر أسماء هذه الطرق ، وتلك الألوان البلاغية ، إلا أنه آثر التطبيق والعمل بادئ ذى بدء.. فضرب لذلك الأمثال دون أن يصدره بما كنا ننتظره منه ، من وضع مقاييسه أولاً كما فعل غيره من علماء الإعجاز .

تحليل الآيات التى ذكرها :

من الآيات التى دعا القاضى إلى التأمل فيها لما اشتملت عليه من الإيجاز وما أودع فيها من البدائع والروائع ولطائف الإيجاز وأنوار الإعجاز الساطعة من مشكاته ورسوخ عروقه فى الفصاحة ، وحلاوة ثمرات بلاغته فى الذوق وما اشتمل عليه من بديع البديع قوله تعالى " ولكم فى القصاص حياة " لأنها من جوامع الكلم فاق ما كان سائراً مسرى المثل عند العرب وهو قولهم : " القتل أنفى للقتل " .

قال العلوى : " فانظر إلى هذه اللفظة الجميلة كم يندرج تحتها من المعانى التى لا يمكن حصرها ولا ينتهى أحد إلى ضبطها ؟ فأين هذا عما أثر عن العرب من قولهم " القتل أنفى للقتل ، وقد تميزت الآية عنه بوجوه ثلاثة : أما أولاً : فلإن قوله " القصاص حياة " لفظتان ، وما نقل عنهم فيه ثلاث كلمات ، وأما ثانياً : فالتكرير فيما قالوه ، وليس فى الآية تكرير وأما ثالثا: فلأنه ليس كل قتل نافياً للقتل ، وإنما يكون نافياً إذا كان على وجه القصاص " [١٢٦].

وزاد الشيخ الطاهر بن عاشور وجها رابعاً : وهو أن لفظ القصاص قد دل على إبطال التكايل بالدماء وعلى إبطال قتل واحد من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل وهذا لا تفيده كلمتهم الجامعة [١٢٧] . أ هـ

([١٢٦]) الطراز للعلوى ٢/١٢٧، ١٢٨ ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان بلا تاريخ .

([١٢٧]) التحرير والتنوير ٢/ ١٤٥ .

فائدة التنكير في الآية :

وإذا نظرت إلى لفظة " حياة " وأنها جاءت منكرة وجدت لهذا التنكير حسنا وروعة ولطف موقع لا يقادر قدره ، وتجدك تعدم ذلك من التعريف وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما .

يقول الإمام عبد القاهر معللا ذلك : " وذلك أن السبب في حسن التنكير وإن لم يحسن التعريف ، أن ليس المعنى على الحياة نفسها ، ولكن على أنه لما كان الإنسان إذا علم أنه إذا قَتل قُتل ، ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه ، صار حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت ، مستفادة بالقصاص ، وصار كأنه قد حيا في باقي عمره به ، وإذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته وجب التنكير وامتنع التعريف من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها ، وأن يكون القصاص قد كان سببا في كونها في كافة الأوقات وذلك خلاف المعنى وغير ما هو المقصود [١٢٨].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [١٢٩] هذه الآية بيان لحال الكفار حين يحل بهم الفزع من مشاهدة ما هُددّوا به والخطاب للنبي ﷺ تسلية له أو لكل مخاطب.

وحذف جواب " لو " للتهويل ، والتقدير لرأيت أمرا عظيما وحالاً هائلة . وعبر بالماضي في " فزعوا " و" أخذوا " والمراد بها الاستقبال لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان ووجد لتحققه وقت الفزع : وقت البعث وقيام الساعة ، وقيل وقت الموت ، وقيل يوم بدر . وهذا الفزع يشعر بأنهم كانوا غير مهيّئين لهذا الوقت أسباب النجاة من هوله .

والأخذ : حقيقتة التناول . وهو هنا مجاز في الغلب والتمكن بهم كقوله تعالى : " فأخذهم أخذة رابية " [١٣٠] والمعنى أمسكوا وقبض عليهم لملاقاة ما أعد لهم من العقاب .

([١٢٨]) دلائل الإعجاز /٢٨٩ .

([١٢٩]) سورة سبأ الآية ٥١ .

([١٣٠]) الحاقة / ١٠ .

وجملة " فلا فوت " معترضه بين المتعاطفات ، والفوت التفلت والخلاص من العقاب ، والمكان القريب : المحشر ، أى أخذوا منه إلى النار فاستغنى بذكر " من " الابتدائية عن ذكر الغاية لأن كل مبدأ له غاية .

ومعنى قرب المكان أنه قريب إلى جهنم بحيث لا يجدون مهلة لتأخير العذاب [١٣١] ففى هذه الآية من الإيجاز والبيغة وعذوبة الألفاظ ما لا يخفى على من له بصيرة وقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [١٣٢] .

وقد اشتملت هذه الآية على ألوان بلاغية منها الإيجاز بحذف مفعول " ادفع " وهو السيئة ، وقد دل عليه انحصار المعنى بين السيئة والحسنة ، فلما أمر بأن تكون الحسنة مدفوعاً بها تعين أن المدفوع هو السيئة ، والتقدير : " ادفع السيئة بالتى هى احسن " كقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ [١٣٣] وقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ [١٣٤] .

" والتى هى أحسن " هى الحسنة ، وإنما صيغت بصيغة التفضيل ترغيباً فى دفع السيئة بها ، لأن ذلك يشق على النفس ، فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس وهو يبعث على الانتقام من المسئ ، فلما أمر رسول الله ﷺ بأن يجازى السيئة بالحسنة أشير إلى فضل ذلك [١٣٥] .

ومنها التعبير بالاستئناف فى قوله " ادفع بالتى هى أحسن " ولم يقل فادفع ولكنه ترك الفاء التفريعية للاستئناف الذى هو أقوى الوصلين ، اتكلالا على فهم السامع ، وقد أشار إلى ذلك القاضى البيضاوى بقوله : " وإنما أخرجه مخرج الاستئناف على أنه جواب من قال : كيف أصنع ؟ للمبالغة " .

---

(١٣١) يراجع الكشاف ٣٩٢/٣، ٣٩٣ نشر دار الريان للتراث ط ثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، التحرير والتنوير ٢٤١/٢٢، ٢٤٢ .

(١٣٢) سورة فصلت الآية ٣٤ .

(١٣٣) سورة الرعد الآية ٢٢ .

(١٣٤) سورة المؤمنون الآية ٩٦ .

(١٣٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩٢/٢٤ .

وقال الشهاب الخفاجي ، ومقتضى الظاهر : ادفع بالحسنة فعدل عنه إلى الابلغ ، لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما هو دونه ، وهذا الكلام أبلغ في الحمل والحث على ما ذكره ، لأنه يومئ إلى أنه مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه [١٣٦].

ومنها التعبير بإذا التي للمفاجأة ، وهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقاً .

وعدل عن ذكر العدو ومعرفا بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ، ليتأتى تنكير " عداوة " للنوعية ، وهو أصل التنكير ، فيصدق بالعداوة القوية ودونها ، كما أن ظرف " بينك وبينه " يصدق بالبين القريب والبين البعيد ، أعني ملازمة العداوة أو طرؤها .

والتشبيه في قوله " كأنه ولىّ حميم " تشبيه في زوال العداوة ومخالطة شوائب المحبة ، فوجه الشبة هو المصافاة والمقاربة ، وهو معنى متفاوت الأحوال ، أي مقول على جنسه بالتشكيك على اختلاف تأثر النفس بالإحسان وتفاوت قوة العداوة قبل الإحسان ، ولا يبلغ مبلغ المشبه به ، إذ من النادر أن يصير العدو وليا حميماً ، فإن صاره فهو لعوارض غير داخلة تحت معنى الإسراع الذي آذنت به " إذا الفجائية " .

ووجه الجمع بين هذين الوصفين " ولي حميم " أنه جمع خصلتين ، كلتاهما لا تجتمع مع العداوة ، وهما خصلتا الولاية والقرابة .

وهذا تركيب من أعلى طرف البلاغة ، لأنه يجمع أحوال العداوات ، فيعلم أن الإحسان ناجع في اقتلاع عداوة المحسن إليه للمحسن على تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفاً ، وتمكنا وبعداً ، ويعلم أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قوياً بقدر تمكن عداوته ؛ ليكون أنجع في اقتلاعها ، ومن الأقوال المشهورة " النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها " [١٣٧] .

---

[١٣٦] تفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب ٤٠٠/٧ ط دار صادر بيروت – بلا تاريخ ، وينظر الكشاف ٢٠٠/٤

[١٣٧] ينظر: التحرير والتنوير / ٢٤ /٢٥٢، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

وقوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١٣٨) .

اشتملت هذه الآية من وجوه البلاغة على الإجمال والتفصيل ، وحسن السبك والنظم والإعلام بأحوال من مضى للاعتبار والإيجاز والانسجام الرائق .

وقد أفادت الفاء التفريع على الكلام السابق ، لما اشتمل عليه من أن الشيطان زين لهم أعمالهم ومن استكبار الآخرين ، أى فكان من عاقبة ذلك أن أخذهم الله بذنوبهم العظيمة الناشئة عن تزيين الشيطان لهم أعمالهم وعن استكبارهم فى الأرض .

وليس المفرّع هو أخذ الله إياهم بذنوبهم ، لأن ذلك قد أشعر به ما قبل التفريع ولكنه ذكر ليقضى بذكره إلى تفصيل أنواع أخذهم ، فالفاء فى قوله : " فمنهم من أرسلنا عليه ... إلخ " لتفريع ذلك التفصيل على الإجمال الذى تقدمه فتحصل خصوصية الإجمال ثم التفصيل ، وللدلالة على عظيم تصرف الله –تعالى– .

فأما الذين أرسل عليهم حاصب فهم عاد ، والذين أخذتهم الصيحة هم ثمود والذين خسفت بهم الأرض هو قارون وأهله ، والذين أغرقهم : فرعون وهامان ومن معهما من قومهما ، وقد جاء هذا على طريقة النشر على ترتيب اللفظ (١٣٩) .

وفى تنويع العذاب على الظالمين دلالة على عجيب قدرة القادر الذى لا يعجزه شئ فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً .

وفى ذلك يقول البقاعى – رحمه الله تعالى – : " فتارة نهلك بريح تقذف بالحجارة من السماء كقوم لوط ، أو من الأرض كعاد ، وأخرى بريح تقرع بالصرخة الأسماع فتزلزل القلوب والبقاع ، ومرة نبيد بالغمس فى الكثيف ، وكرة بالغمر فى اللطيف .

فلله در الناظرين فى هذه الأوامر النافذة ، والمتفكرين فى هذه الأقضية القاضية ليعلموا حقيقة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .. ﴾(١٤٠) .

---

(١٣٨) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

(١٣٩) التحرير والتنوير ٢٠/٢٢١ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[١٤١]

هذه الآية حوت من البلاغة أمرًا عجيباً ترقص الرؤس له طربا فقد تناولها الإمام عبد القاهر فى الدلائل بشئ من التحليل فى عدة مواضع ففتح الكلام فيها لكل من أتى بعده كالزمخشرى والسكاكى وابن أبى الإصبع المصرى والعلوى فى الطراز وغيرهم من العلماء الذين اهتموا بإبراز الجانب البلاغى فى القرآن الكريم .

ولنكتف بذكر ما أشار إليه ابن أبى الإصبع فى تحرير التحبير حيث استخرج منها أحداً وعشرين ضربا من المحاسن " وهى المناسبة التامة بين " أقلعى وابلعى " ، والمطابقة بذكر الأرض والسماء ، والمجاز فى قوله " يا سماء " فإن المراد – والله أعلم – يا مطر السماء ، والاستعارة فى قوله " أقلعى " والإشارة فى قوله تعالى " وغيض الماء " فإنه عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة والتمثيل فى قوله تعالى " وقضى الأمر " عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بُعد عن لفظ المعنى الموضوع له ، والإرداف فى قوله تعالى – " واستوت على الجودى " فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان ، وجلوسها جلوساً متمكناً لا زيغ فيه ولا ميل بلفظ قريب من لفظ المعنى ، والتعليل ، لأن غيض الماء علة الأستواء ، وصحة التقسيم إذا استوعب – سبحانه – أقسام أحوال الماء حالة نقصه ، إذ ليس إلا إحتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذى يَنبع من الأرض ، وغيض الماء الحاصل على ظهرها ، والاحتراس فى قوله – تعالى – : " وقيل بعداً للقوم الظالمين " إذ الدعاء يشعر بأنهم مستحقوا الهلاك ، احتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك لعمومه ربما شمل من يستحق ومن لا يستحق ، فتأكد بالدعاء على الهالكين لكونهم مستحقين لذلك ، والإيضاح في قوله " للقوم " ليتبين لهم أن القوم هم الذين سبق ذكرهم فى الآية المتقدمة عليها ، حيث قال تعالى ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾[١٤٢] وفى قوله قبل ذلك ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ

---

(١٤٠) سورة العنكبوت الآية ٢٢ . ، ينظر: الدرر ٥/٥٦٠ ت: عبد الرازق غالب المهدى ط دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

(١٤١) سورة هود الآية ٤٤ .

(١٤٢) سورة هود الآية ٣٨ .

(١٤٣) فأتى – سبحانه – في آخر هذه الآية بلفظة" القوم " التي الألف واللام فيها للعهد ، ليبين أنهم القوم الذين سبق ذكرهم ، ووصفهم بالظلم كما وصفهم في أول الكلام بالظلم ، وذلك مما يوضح المعنى ويبينه ، فعلم أن لفظة " القوم " هنا ليست فضلة في الكلام وأنها يحصل بسقوطها لبس في المعنى ، وعدم بيان الكلام محتاج له ، والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها ، وحسن النسق ، لأنه – سبحانه – عطف القضايا بعضها على بعض بحسب ترتيب حسبما وقعت ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، لأن كل لفظة لا يصلح موضعها غيرها ، والإيجاز ، لأنه – سبحانه – اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشئ في أخصر عبارة ، والتسهيم ، لأن أول الآية إلى قوله تعالى " أقلعي " يقتضي آخرها، والتهذيب ، لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سمحة سهلة ،مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة مع الخلو عن البشاعة والتركيب ، سليمة من التعقيد وأسبابه ، والتقديم والتأخير والحذف المخل والزيادة المسهبة ، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شئ من هذا النظام ، والتمكين ، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها ، مطمئنة في مكانها ، غير قلقة ولا مستدعاة ، والانسجام ، وهو تحدر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء وينساب انسياب العليل من الهواء ... " ثم يقول : فانظر – رحمك الله – إلى عظمة هذا الكلام ، لتعلم ما انطوى عليه نظمه وما تضمنه لفظه (١٤٤).

هذا ما ذكره ابن أبي الإصبع في محاسن هذه الآية وما اشتملت عليه من فنون البلاغة والبيان تحت باب الإبداع (١٤٥).

هذا ما ذكره القاضي عياض من آيات خمس دعا إلى التأمل فيها وبيان ما اشتملت عليه من إيجاز لا يرام وإعجاز لا يسام .

ثم ضرب بياناً لأنه لا ينحصر في آيات مخصوصة – كالتي ذكرها – مشيراً إلى وجوه من الإعجاز فيها فقال : " وأنت إذا تأملت هذه الآيات.. وأشباهها من الآى ، بل أكثر القرآن

---

(١٤٣) سورة هود الآية ٣٧ .

(١٤٤) تحرير التحبير ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ .

(١٤٥) وقد قال في تعريفه " أن تكون مفردات كلمات البيت من الشعر أو الفصل من النثر أو الجملة المقيدة متضمنة بديعاً للبحث تأتي في البيت الواحد القرينة الواحدة عدة ضروب من البديه بحسب عدد كلماته أو جملته ص٦١١ من التحرير .

حققت ما بينه من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها ، وديباجة عبارتها ، وحسن تأليف حروفها ، وتلاؤم كلمها وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة ،وفصولاً جمة ، وعلوماً زواخر، ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها،وكثرت المقالات فى المستنبطات عنها".

ولذا يقول سيدنا عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – جميع العلم فى القرآن ، لكن تقاصر عنه أفهام الرجال ، وقد سئل بعض الحكماء من العلماء : ما فى كتاب الله تعالى من علم الطب ؟ فقال : كله فى نصف آية هى قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (١٤٦) فقال : صدقت وبالحق نطقت (١٤٧).

ثم إن هذا الكلام الذى قاله القاضى ليس سوى تلك الألوان المتعلقة بالألفاظ والمعانى ، والتى صاغها غيره ألواناً بديعية لها رونقاً وبهاؤها فالإيجاز صورة بديعية ، ومثله التلاؤم ، وكذلك حسن الديباجة ، وحسن النسق ، وحسن التقسيم ، وهكذا كل ما ورد فى عباراته ، ما هو إلا أسماء لتلك الصور البديعية المتعددة ، والتى أفرد لها من سبقه مجالاً بالنص عليها .

والمهم هنا أن القاضى – رحمه اللع وأثابه – قد تحدث – كما يفهم من كلامه – عن الألفاظ وأثرها فى النظم وتلائمه ، وهو بذلك يتفق مع ابن سنان الخفاجى فى رأيه القائل بأن الإعجاز فى الألفاظ ، وإن زاد عليه أن تلاؤم الألفاظ وفصاحتها يؤديان إلى جمال المعنى (١٤٨).

أسلوب القرآن فى عرض القصص :

ثم يختم القاضى هذا الوجه بحديثه عن طريقة القرآن فى عرض القصص حيث توفر لها ما يجعلها قوية التأثير والفعالية فيقول : " ثم هو فى سرد القصص الطوال ، وأخبار القرون السوالف ، التى يضعف فى عادة الفصحاء عندها الكلام ، ويذهب ماء البيان آية لمتأمله ، من ربط الكلام بعضه ببعض ، والتئام سرده ، وتناصق وجوهه ، كقصة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصة اختلفت العبارات عنها ، على كثرة ترددها ، حتى تكاد كل واحدة تنسّى فى البيان صاحبتها ، وتناصق فى الحسن وجه مقابلتها ، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها " .

---

(١٤٦) سورة الأعراف الآية ٣١ .

(١٤٧) شرح ملا على القارى على الشفا ٤٩٣/٢ .

(١٤٨) ينظر: إعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق د/ حفنى شرف ط١٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٠هـ ١٩٩٧م .

يشير القاضي في كلامه السابق إلى أن القصص القرآني على كثرته وطوله متناسب في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى فقال – عز من قائل : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١٤٩) وكما قال سبحانه :﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١٥٠) فأخبر أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت ، وبان عليه الاختلال . وفي ذلك معنى ثابت ، وهو ان عجيب نظمه وبديع تأليف لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر القصص الطوال وأخبار القرون الماضية .

والمتأمل في نظم القرآن الكريم يجد جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد سواء في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط من المنزلة العليا ، ولا إسفال فيه إلى المرتبة الدنيا .

أما كلام الناس فقد يتفاوت عند إعادة ذكر القصة الواحدة ويذهب ماء البيان ، وليس كذلك القرآن الكريم فتراه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعُلم بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذي يقدرون عليه فيه تفاوت كثير عند التكرار (١٥١).

ثم يشير القاضي إلى تكرار القصة في القرآن الكريم مع اختلاف العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تبدوا كل واحدة منها وكأنها مستقلة ، وكأن سامعها إنما سمعها الآن ، ولم يسبق لها ذكر قبل ذلك ، لأن العبارة غير الأولى ، والسياق ومناسبة المقام تفيد فوائد أخرى ، وتجدد لمن سمعها حظاً عظيما للعبارة المغايرة لما تقدمها مع عدم النفور عند سماعها وتكريرها وتعداد تقريرها والحاصل أنه كما قال الشاطبي – رحمه الله تعالى وأثابه :

وخير جليس لا يمل حديثه وترداده يزداد فيه تجملا

وكما قال غيره :

---

(١٤٩) سورة الزمر الآية ٢٣ .

(١٥٠) سورة النساء الآية ٨٢.

(١٥١) يراجع إعجاز القرآن للباقلاني ٣١، ٣٢ ت : أ/ صلاح محمد عويضة ط دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره هو المسك ما كررته يتضوع[١٥٢]

ومن ثم ترى أن القصة الواحدة تتكرر فى عدة مواضع بأساليب مختلفة، لحكم بالغة وأهداف سامية ، توسع الباحثون فى دراستها ، وانتهوا – بقدر طاقاتهم البشرية – إلى أن هذه الظاهرة لا تعد تكرارا فى الحقيقة ، ولكنها صور للمواقف والمشاهد المختلفة ، تختلف لتأتلف ، فتنتظم منها قصة بأكملها ، بعد أن وزعت جوانبها فى مواطن متعددة ، قد استدعتها لخدمة المقاصد العامة والخاصة للقصة .

فما يبدوا من أنه اختلاف بين المقولات فى الواقعة الواحدة أو الحدث الواحد ليس إلا تجميعاً لمتناثر الأقوال من هذه الواقعة ، أو ليس إلا التقاطا لظاهر القول ، وما يكمن وراءه من خواطر وخلجات ، لا يستطيع أن يمسك بها إلا النظم القرآنى وحده على هذا الأسلوب من التكرار البديع .

فالتكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدى وظيفة حيوية فى إبراز جوانب لا يمكن إبرازها على وجه واحد من وجوه النظم ، بل لا بد أن تعاد العبارة مرة ومرة ، لكى تحمل فى كل مرة بعضاً من عناصر المشهد ، وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله .

ذلك بأن القرآن الكريم يعرض المشاهد بأبعادها وأعماقها ، وحركاتها وسكناتها ونطقها وصمتها ، ووسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، وخلجات قلوبها ، بحيث يستطيع القارئ أن يعايش القصة معايشة صادقة ، إن كان يحمل فى قلبه إيماناً قوياً ، وعقلاً ذكياً ، وفكرا ثاقباً ، حتى كأنه كان مع أشخاص هذه القصة يشاركهم آمالهم وآلامهم ، ويجاذبهم أقوالهم وأفعالهم ، ولو جمعت القصة كلها فى موطن واحد لفات الكثير والكثير من مواطن العظة والعبرة ، ولضاعت معالم الإعجاز البيانى ومناحيه المختلفة ، ووجوهه التى لا تتألق إلا فى ظل هذا التكرار ، ولأشبهت القصة القرآنية القصة التاريخية التى لا تعنى إلا بإبراز الشخصيات والحوادث من غير نظر إلى الاتعاظ والاعتبار والتوجيه .

---

(١٥٢) ينظر: شرح الخفاجى والقارى على الشفا ٢/٤٩٤، ٤٩٥ .

وبالجملة : فإن التكرار فى القصة القرآنية هو إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها بحيث لا يرى لها وجه فى أية لغة ، وفى أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه فى جلاله وروعته وسطوته [١٥٣].

هذا كله قد أثبته القاضى تحت الوجه الأول من وجوه الإعجاز الأصيلة لديه .

فلننتقل بعد ذلك إلى الوجه الثانى من وجوه الإعجاز عند القاضى ، والله المستعان وعليه التكلان .

فى بيان الوجه الثانى من وجوه الإعجاز البيانى عند القاضى عياض

(إعجاز النظم والأسلوب)

قال القاضى عياض – رحمه الله تعالى وأثابه – : " الوجه الثانى من إعجازه : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب ، المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شئ منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتدلهت [١٥٤] دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم ، من نثر ، أو نظم ، أو سجع ، أو رجز ، أو شعر .

ولما سمع كلامه ﷺ الوليد بن المغيرة ، وقرأ عليه القرآن رقّ ، فجاءه أبو جهل منكراً عليه ؛ قال : " والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار منّى ... والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا " .

وفى خبره الآخر حين جمع قريشاً عند حضور الموسم وقال : إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضاً . فقالوا : نقول : كاهن قال : والله ما هو بكاهن ، ما هو بزمزمته [١٥٥] ولا سجعه . قالوا : مجنون !! قال : ما هو بمجنون ، ولا بخنقه [١٥٦]، ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر !! قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريظه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشاعر . قالوا : فنقول : ساحر !! قال : ما هو بساحر ، ولا نفثه ولا عقده [١٥٧].

---

(١٥٣) قصص القرآن للأستاذ الدكتور / محمد بكر إسماعيل /١١ ، ١٢ ط دار المنار ط ثانية ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

(١٥٤) من التدله وهو ذهاب العقل من الهوى .

(١٥٥) الزمزمة : صوت خفى لا يكاد يفهم .

(١٥٦) أى ليس هو ممن أصابه الجن وخنقه ولا وسوس فى صدره لعدم ظهور أثره فى أمره .

(١٥٧) كان الساحر يعقد خيطا ثم ينفث عليه .

قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أنه ساحر ؛ فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته ، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس . فأنزل الله – تعالى – في الوليد : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . . . الآيات ﴾ [158]

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقلته ، والله لقد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ،ولا بالسحر، ولا بالكهانة [159] وقال النضر بن الحارث نحوه.

وفي حديث إسلام أبي ذر وصَف أخاه أُنَيْساً فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، ولقد ناقض [160]اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم ، وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، لقد وضعته على أقراء [161] الشعر فلم يلتئم [162] ، وما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر ، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون [163].

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة .

والإعجاز بكل واحد من النوعين : الإيجاز والبلاغة بذاتها ، والأسلوب الغريب بذاته ، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق ، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منها ، إذ كل واحد خارج عن قدرتها ، مباين لفصاحتها وكلامها .

([158]) سورة المدثر الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ . وقد ساق هذين الخبرين بلفظ قريب ابن كثير في تفسيره لسورة المدثر ج٨/ ٢٩٢ ، ٢٩٣ ط دار الشعب ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م ت:د/ محمد إبراهيم البنا وآخرين.

([159]) مختصر سيرة ابن هشام ١٨٦/١ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ثانية ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

([160]) أي عارض ، وهو مأخوذ من النقض وهو هدم البناء وحل طاقات الحبل .

([161]) أقراء الشعر أي طرقه وأنواعه .

([162]) لم يلتئم : أي لم يلائم على شئ من أوزانه .

([163]) صحيح مسلم بشرح النووي ٣٣٤/٥، ٣٣٥ كتاب فضائل الصحابة (باب من فضائل أبي ذر ﷺ ط دار الشعب ت: عبد الله أحمد أبو زينة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

وإلى هذا ذهب غير واحد من الأئمة المحققين ، وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب ، وأتى على ذلك بقول تمجه الأسماع ، وتنفر منه القلوب ، والصحيح ما قدمناه والعلم بهذا كله ضرورة وقطعاً .

ومن تفنن فى علوم البلاغة ، وأرهف خاطره ولسانه أدبُ هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه .

وقد اختلف أئمة أهل السنة فى وجه عجزهم عنه ، فأكثرهم يقول : إنه مما جُمع فى قوة جزالته ، ونصاعة ألفاظه ، وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه ، لا يصح أن يكون فى مقدور البشر، وإنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها،كإحياء الموتى،وقلب العصا،وتسبيح الحصا .

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل تحت مقدور البشر ، ويُقدِرُهُم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا وعجّزهم عنه ، وقال به جماعة من أصحابه .

وعلى الطريقين ، فعجز العرب عنه ثابت ، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون فى مقدور العرب وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع ، وهو أبلغ فى التعجيز وأحرى بالتقريع ، والاحتجاج بمجئ بشر مثلهم بشئ ليس من قدرة البشر لازم ، وهو أبهر آية ، وأقمع دلالة ، وعلى كل حال فما أتوا فى ذلك بمقال ، بل صبروا على الجَلاء والقهر ، وتجرعوا كاسات الصَّغار والذل ، وكانوا من شموخ الأنف [١٦٤] وإباءة الضيم [١٦٥] ، بحيث لا يؤثرون ذلك اختياراً ، ولا يرضونه إلا اضطراراً ، وإلا فالمعارضة – لو كانت من قدرهم – والشغل بها أهون عليهم ، وأسرع بالنجح [١٦٦] ، وقطع العذر ، وإفحام الخصم لديهم ، وهم ممن لهم قدرة على الكلام ، وقدوة فى المعرفة به لجميع الأنام ، وما منهم إلا مَن جهد جَهْده واستنفذ ما عنده فى إخفاء ظهوره ، وإطفاء نوره ، فما جلوا فى ذلك خبيئة [١٦٧]من بنات شفاههم ، ولا أتوا بنطفة

([١٦٤]) الانف : بفتح الهمزة وسكون النون عضو معروف ويجوز أن يكون بضمتين جمع أنف ، وشماخة الأنف رفعته كبرا وعتوا .

([١٦٥]) أى وكانوا من منوع الضرر تحامياً عنه وتباعداً منه .

([١٦٦]) النجح : بضم النون وسكون الجيم هو الظفر والفوز بالمطلوب .

([١٦٧]) الخبيئة : فعيلة بمعنى مفعولة : أى مخبأة فى ضمائرهم ومستورة خلف سرائرهم .

من قعين مياههم ، مع طول الأمد وكثرة العدد ، وتظاهر الوالد وما ولد ، بل أبلسوا ، فما نبسوا ، ومُنعوا فانقطعوا ، فهذان النوعان من إعجازه .

تحليل الوجه الثانى عند القاضي

أشار القاضى فى هذا الوجه إلى أسلوب القرآن وصورة نظمه العجيب ويقصد بالأسلوب والصورة إلى رشاقة عبارته وفخامة معانيه ، وهذا باعتبار نظمه وطريقة الوارد فيها ، فإنه مع الرغبة لا يشبه الشعر ولا الخطب ولا غيرهما مما كان عادتهم ومحاوراتهم قرى الأسماع بموائد عوائده .

وبهذا اضمحل ما قيل إنه بحسب المعنى راجع للأول ، لأن حسن تأليفه والتئام كلمه راجع لصورة نظمه .

وفى كلامه إشارة إلى أن الإعجاز ليس مداره على الألفاظ ، ولذا عبر بالنظم دون اللفظ [١٦٨].

قال الإمام عبد القاهر :

" اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك ، فلا تخل بشئ منها " [١٦٩].

حديث القاضى عن النظم:

وقد أشار القاضى إلى طريقة التأليف بين الألفاظ والمعانى على نحو متلائم متشاكل ، وقد جاءت الأساليب القرآنية على نحو من النظوم الفائقة قهراً وإعجازاً .

وحديث القاضى عن اللفظ والمعنى والنظم مناسب تماماً لما استقر عليه أمر النقد والبلاغة العربية فى الوقت الحاضر على وجه الإجمال ، وإن كان حديثه عن النظم إشارة لا تقاس بما أصله القاضى عبد الجبار ولا بما أسسه الإمام عبد القاهر من نظام بلاغى ، ونظرية متعددة الجوانب ، متكاملة الخلق للنظم .

([١٦٨]) ينظر: شرح الشفا للخفاجى ٢/٤٩٥ .

([١٦٩]) الدلائل / ٨١ .

ولا يفوتنا هنا أن نقول : إن القاضى عياض لم يبين لنا كيفية النظم كما قال عبد الجبار فى المغنى [١٧٠]، ولا شروطه التى أدت إلى حدوث هذا الأثر ، كما لم يبين معنى النظم ، وهل هو توخى معانى النحو ، كما قال عبد القاهر أو هو شئ آخر ؟ .

ثم إن هذا الوجه – الذى يتعلق بنظم القرآن وأسلوبه – هو ما توافق عليه جل الباحثين والعلماء – الذين بحثوا فى إعجاز القرآن ، وحاولوا الكشف عن أسراره ، بل لقد أجمعوا على أن هذا الأسلوب الذى انفرد به القرآن مخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها ، وأن نظمه جاء على صورة لم تقع للعرب ، وإن جمعت الطيب الحسن من كل أسلوب وهذا هو الرأى الذى لا يصح فيه خلاف .

وحتى الذين ذهبوا إلى وجوه أخرى غير النظم والتأليف لم ينسوا فضل نظم القرآن الكريم ، وتأليفه الخاص .

أثر نظم القرآن فى نفوس سامعيه من العرب

ثم أخذ القاضى فى بيان أثر نظم القرآن الكريم فى نفوس سامعيه وأن الوليد بن المغيرة – وكان من صناديد قريش وعقلائهم وفصحائهم – لما قرأ عليه ﷺ بعض القرآن رقّ قلبه ومال طبعه إلى الاعتراف بالإسلام لشدة تأثره بسماع ما ألقى عليه ، ولكن الله تعالى لم يهده إلى الإسلام ، ومثله النضر بن الحارث .

وكذلك شهادة عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن بأنه لم يسمع مثله قط وأنه ليس بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ؛ لأن كلام السحرة والكهنة مسجع متكلف ، ولم يكن فى قائله شئ من أعمال السحرة المعهودة ولا الكهانة المعروفة وكذلك قول أنيس – أخى أبى ذر الغفارى – حين أرسله أخوه ليأتى بخبر النبى ﷺ وبعثه وإظهار نبوته ، فأخبره بما يقول الناس فى شأن رسول الله ﷺ وأنهم يقولون : شاعر ساحر كاهن ، ثم قال ﷺ : "لقد سمعت ما قال الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر وإنه لصادق وإنهم لكاذبون"

أى فهم كاذبون فى كل ما قالوه ونسبوه له من الأباطيل .

---

(١٧٠) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ١٩٧/١٦ وما بعدها ط وزارة الإرشاد .

ثم يشير القاضي بعد ذلك إلى أن الأخبار في هذا الذي ذكره من اعتراف البلغاء بإعجازه ، وانقياد من هداه الله تعالى منهم للإيمان به صحيحة كثيرة مع اختلاف أنواعها ورواياتها .

الاحتجاج لدلالة هذه الأقوال على إعجاز القرآن .

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني – بعد أن ساق هذه الأخبار للدلالة على إعجاز القرآن الكريم للبلغاء والفصحاء منهم – : " واعلم أنه لا يجوز أن يقال في هذا وشبهه إنه لا يكون دليلا حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض ، حين خلوا بأنفسهم فتفوضوا وتحاوروا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض ، وإن كان منه من كلام المؤمنين ، أو ممن قاله ثم آمن ، فإنه لا يصح الاحتجاج به في حكم الجدل ، من حيث يصير كأنك تحتج على الخصم برأي تراه أنت ، وبقول أنت تقوله ، وذلك أنه إنما يمتنع أن يُدل إذا صدر القول مصدر الدعوى والشئ يدفعه الخصم وينكره ، فأما ما كان مخرجه مخرج التنبيه على أمر يعرفه ذوو الخبرة وأطلق قائله إطلاق الواثق بأنه معلوم للجميع ، وأنه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنقص إلا وهو يُحوَج إلى تسليمه والاعتراف به شاء أم أبى فهو دليل بكل حال ، ومن قول كل قائل ، وحجة من غير مثنوية –أي استثناء – ومن غير أن ينظر إلى قائله أموافق أم مخالف ، ذاك لأن الدلالة ليست من نفس القول وذات الصفة، بل في مصدرهما، وفي أن أُخرجا مخرج الإخبار عن أمر هو كالشئ البادي للعيون لا يُعمل أحد بصره إلا رآه .

وإذا رأينا الأحوال والأقوال منهم قد شهدت ، كالذي بان ، باستسلامهم للعجز وعلمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية ، الذي إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويقدرون عليه في ضروب النظم وأنواع التصرف ، فاته الفوت الذي لا يُنال ، وارتقى إلى حيث لا تطمع إليه الآمال ، فقد وجب القطع بأنه معجز [١٧١].

الإعجاز عند القاضي بكلا النوعين النظم العجيب والأسلوب الغريب

مما تجب الإشارة إليه هنا أن القاضي جعل الإعجاز البلاغي وجها والإعجاز بالنظم وجها آخر ، وبذلك يكون قد جمع بين رأي الشيخ عبد القاهر ورأي ابن سنان .

([١٧١]) الرسالة الشافية في الإعجاز للإمام عبد القاهر ٤٠، ٤٢ ت: أ.د / عبد القادر حسين ط أولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م ط دار الفكر العربي .

والوجه الأول منهما : إشارة إلى قوله في أول فصل الإعجاز " أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب " وحاصله أن إعجازه من نفس جوهر كلامه بكونه في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة بحيث يسلم عن ضعف التأليف وتنافر الحروف والكلمات وإيجازه ، ورعاية معان ووجوه يقتضيها المقام ، وتضمن نكات يعجز عنها طاقة البشر .

والوجه الثاني : ما أشار إليه بقوله " صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه " يعني كونه على نمط لا يشبه نمط كلامهم المنظوم ، ولا المنثور ، فإنه ليس بشعر ، ولا سجع ولا خطب ، وإن وقع فيه من غير تكلف سجع أحياناً ونظم ، حتى ذهب الخطيب في " تكملة العمدة " أن النظم الواقع فيه مقصود كالأبيات وأشعارها التي تقع في أثناء الإنشاء نادراً ولا يسمى بها الكلام شعراً ، لأنه لم يقصد بالذات ، وهو قول غريب " كما يقول الخفاجي في شرحه [١٧٢].

وقد عقد الباقلاني فصلاً ينفي فيه أن يكون القرآن شعراً ، وفصلاً آخر ينفي فيه أن يكون سجعاً [١٧٣].

ثم أشار القاضي إلى أن العرب لم تقدر على الإتيان بواحد منهما ، لا بالنظم العجيب ولا بالأسلوب الغريب ، لأن كل واحد منهما خارج عن قدرتها مغاير لفصاحتهم وبلاغتهم من الشعراء والخطباء لما فيه من وجوه البلاغة التي لا تحيط بها قدرتهم ولم تألفها طباعهم مع انسجامه وعذوبة ألفاظه وإلى هذا القول الدال على أن كل واحد منهما نوع مستقل من الإعجاز كاف في إثباته ذهب جماعة كثيرة من أئمة المحققين العارفين بالبلاغة ووجوه الإعجاز . كالأصبهاني والزملكاني وابن عطية والقاضي عبد الجبار والفخر الرازي ، وحازم القرطاجني والمراكشي [١٧٤].

ثم يشير القاضي إلى قول آخر ، وهو أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب لا بكل واحد منهما وحده ، واستدل القائل على ذلك القول بكلام تمجه الأسماع ، وتقذفه الفهوم المستقيمة وتدفعه الطباع السليمة ، لأنه قول ضعيف مردود ، ولذا قال في الأول " إنه قول

---

(١٧٢) ينظر: شرح الخفاجي على الشفا ٢/٥٠١، ٥٠٢ .

(١٧٣) يراجع إعجاز القرآن ص ١٤٣: ١٥٤ .

(١٧٤) يراجع في هذا الوجه الاتقان للسيوطي ٢/٢٥٦ وما بعدها والبرهان للزركشي ٢/٩٨ وما بعدها.

الأئمة المحققين " وأشار إلى هذا القول بأنه قول بعض المقتدى بهم ، ليلفت إلى أن هذا القول لـه وجه أيضاً ، ليس كالقول بالصرفة .

ولهذا قال " والصحيح ما قدمناه " أى : من أن كل واحد منهما وجه في الإعجاز كـاف فيه.

ثم يقول القاضي " والعلم بهذا كله ضرورة وقطعاً " أى العلم بإيجازه وبلاغتـه وأسـاليبه العجيبة على القولين ضرورة وقطعاً عند أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز أمر من جـنس البلاغة يدرك كالملاحة ولا يوصف ، ولا طريق إليه من جهة الصّنيع إلا معرفة علـوم المعـاني والبيان والبديع ، مع معونة فيض إلهي يورث العلم بكون ذلك ضرورة وقطعاً وأنـه في أعلـى طبقات الكلام [١٧٥].

ولذا قال معللا لما تقدم ومشيراً إلى أثر الذوق والإحساس والدراية والإطلاع ، أى مجموع الصفات الدرسية بجانب الصفات الفطرية : " ومن تفنن في علومه البلاغة ، وأرهـف خـاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه " أى من أن كلا منهما نوع إعجاز بذاته منفرداً عند أهل التحقيق بصفاته .

ولعله كان يرمي من وراء ذلك إلى بيان أثر القرآن النفسي في النـاس أجمعـين عامتـهم وخاصتهم ، فالعامة تستولي عليهم آياته ، وتملك عليهم أقطار نفوسهم كلماته ، والخاصة الذين يدرسون ويفهمون يدركون من أول الطريق سحر الإعجاز من وراء فصاحته .

حقاً إنه كتاب مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كما أنه كتاب أحكمت آياته ثـم فصلت من لدن حكيم خبير .

بيان وجه الإعجاز في القرآن

هناك فرق بين وجه الدلالة على أن القرآن معجز ، وبين وجه الإعجاز في القرآن .

فالمراد بالأول : ما يثبت أن العرب عجزوا ، وهذا أمر طريقه الرواية والخبر ، والاستنباط مما جرت عليه الحوادث في عصر البعثة .

---

[١٧٥] يراجع شرح ملا على القاري والخفاجي ٢/٥٠١، ٥٠٢ .

والمراد الثانى : تحديد العناصر البلاغية الخاصة بالقرآن ، والتى لا يوجد شئ منها فى كلام الناس ، لأنها ليست من طبائع الناس وليست فى طاقاتهم[١٧٦] وقد عرض القاضى هذه المسألة من وجهة نظر العلماء فقال : " وقد اختلف أئمة أهل السنة فى وجه عجزهم عنه ، فأكثرهم يقول : إنه مما جمع فى قوة جزالته ونصاعة ألفاظه ، وحسن نظمه ، وإيجازه وبديع تأليفه ، وأسلوبه ، لا يصح أن يكون فى مقدور البشر ، وإنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها ، كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصا".

وهذا ما قرره العلماء وأثبتوه فى كتبهم وعقولهم ، ويكاد يمثل الرأى الذى لا يصح فيه خلاف . وأول من قرر ذلك الإمام الخطابى فى رسالته " بيان إعجاز القرآن " وتبعه الباقلانى فى " إعجاز القرآن " وهما من أهل السنة ، وتبعهما بعد ذلك العلماء الذين اشتغلوا بدراسة الإعجاز . ومن ثم قال ابن عطية :" إنه الذى عليه الجمهور والحذاق – وهو الصحيح فى نفسه – وأن التحدى واقع بنظمه وصحة معانيه وتوالى ألفاظه [١٧٧].

([١٧٦]) ينظر: الإعجاز البلاغى أ.د / محمد أبو موسى ص١٨١: ١٨٩ .

([١٧٧]) مقدمة التفسير المطبوعة ص٢٧٨ : ٢٨٠ . ونقله فى البرهان ٢/٩٧ .

المصادر والمراجع

١. أثر المذاهب الكلامية في مسيرة البحث البلاغي د/ محمود مخلوف سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

٢. إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق د/ حفني شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م .

٣. إعجاز القرآن ت: السيد صقر ط دار المعارف سنة ١٩٧٧م

٤. إعجاز القرآن للباقلاني ت: أ/ صلاح محمد عويضة ط دار الكتب العلمية ط أولى سنة ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

٥. الإتقان للسيوطي ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط ثالثة ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

٦. الإعجاز البلاغي د/ محمد أبو موسى ط مطابع المختار الإسلامي ط أولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م .

٧. الإعجاز البياني للقرآن د / عائشة عبد الرحمن ط دار المعرفة الإنسانية .

٨. الإعلام لفخر الدين الزركلي ط دار العلم للملايين – بيروت .

٩. البرهان للزركشي .

١٠. التعريفات للجرجاني

١١. الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب للعلامة برهان الدين ابن فرحون المالكي .

١٢. الرسالة الشافية في الإعجاز للإمام عبد القاهر ت: ا.د / عبد القادر حسين ط دار الفكر العربي ط الأولى سنة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

١٣. الشفا للقاضي عياض .

١٤. الصاحبي لابن فارس . ت: صفوان عدنان داوود ط أولى ١٤١٢هـ١٩٩٢م دار القلم . دمشق .

١٥. الطراز للعلوي ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بلا تاريخ .

١٦. القرآن الكريم جلّ من أنزله

١٧. الكشاف نشر دار الريان للتراث ط ثالثة ١٤٠٧هـ١٩٨٧م .

١٨. المحرر الوجيز لابن عطية .

١٩. المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ط وزارة الإرشاد .

٢٠. المفردات للراغب الأصفهانى .

٢١. المقدمة لابن خلدون

٢٢. الملل والنحل ط الأزهر.

٢٣. المواقف للإيجى شرح السيد شريف ط السعادة ١٣٢٥هـ١٩٠٧م أولى.

٢٤. النكت فى إعجاز القرآن .

٢٥. بيان إعجاز القرآن للخطابى .

٢٦. بيان إعجاز القرآن للخطابى ط دار المعارف بمصر ت: محمد خلف الله ، د/ محمد زغلول سلام سنة ١٣٨٧هـ١٩٦٨م .

٢٧. بيان القرآن ت: الشيخ / عبد الله الصديق الغمارى ط أولى ١٣٧٢هـ١٩٥٢م – نشر مطبعة دار التأليف .

٢٨. تفسير ابن كثير ط دار الشعب سنة ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م ت : د/ محمد إبراهيم البنا وآخرين .

٢٩. تفسير البيضاوى ومعه حاشية الشهاب ط دار صادر – بيروت – بلا تاريخ

٣٠. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ت: أ/ محمود شاكر نشر مطبعة المدنى بالقاهرة ط ثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

٣١. شرح ملا على القارى على الشفا ت: فضيلة الشيخ / حسنين مخلوف ط مطبعة المدنى بلا تاريخ .

٣٢. صحيح مسلم بشرح النووى ط الشعب ت: عبد الله أحمد أبو زينة ١٣٩٣هـ١٩٧٣م .

٣٣. فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ط دار الغد العربى ت: ا/ طه عبد الرؤوف سعد .

٣٤. قصص القرآن للأستاذ الدكتور / محمد بكر إسماعيل ط دار المنار ط ثانية ١٤١٨هـ١٩٩٧م .

٣٥. مختصر سيرة ابن هشام ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ثانية ١٤١٨هـ١٩٩٧م.

٣٦. مداخل إعجاز القرآن أ/ محمود محمد شاكر نشر مطبعة المدنى ط أولى ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م .

٣٧. مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى د/أحمد جمال العمرى ط دار المعارف

٣٨. مقالات الإسلاميين ت: الشيخ محيي الدين عبد الحميد – بلا تاريخ .

٣٩. نسيم الرياض شرح الخفاجى على الشفا ط دار الفكر .

٤٠. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعى ت : عبد الرازق غالب المهدى ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط أولى سنة ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

٤١. وفيات الأعيان ت: محمد محيى الدين عبد الحميد ط أولى ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م ط السعادة .